العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية

الجزء الرابع

يتناول الجزء الرابع من هذا الكتاب حكم المماليك الكرج، الذين أقاموا بالعراق حكماً عسكرياً باسم حكومة السلطان العثماني، ولكن في واقع الحال قام حكمهم على سياسة الاستبداد وانفراد عنصر المماليك الكرج بالسلطة، وبسبب تلك السياسة العنصرية، وجد المماليك الكرج أنهم محاطون بالأعداء، ويعيشون عزلة خانقة حتى داخل مجتمع بغداد العثماني، الذي كانت عائلاته القديمة تحتقرهم وتعيرهم بوضاعة الأصل وحداثة النعمة.

لتكريس حكمهم العنصري، شن المماليك الكرج حروباً متواصلة ضد السكان، ودبروا المكائد والمؤامرات، وكانوا يقتلون الغير على الشبهات. وبعد أن تسلطوا على البلاد، انهمكوا في أعمال السلب والنهب وتكديس الثروات، وهذا جرهم إلى حياة مترفة، وفساد أخلاقي لم يشاهد المجتمع البغدادي مثله من قبل.

وبينما كان شعب العراق يعيش تلك الحياة المأساوية، التي هدت اقتصاده الزراعي وأضعفت كيانه الاجتماعي، تعرضت الأراضي العراقية إلى غزوات سلب ونهب من نوع أخر، شنتها القبائل البدوية النجدية باسم المذهب الوهابي قتلت أثناءها الآلاف من السكان الأبرياء، ودمرت العديد من المدن والقصبات، وأحرقت القرى والمزارع، واستباحت المراقد المقدسة، ونهبت خزائنها وما كانت تحويه من تراث تاريخي لا يقدر بثمن. وبفعل تلك الأحداث التاريخية، زادت عزلة حكومة الكرج عن سكان البلاد وعن حكومة السلطان العثماني، وهذا زادهم ضعفاً وشراسة، واللافت أن تلك التطورات جرتهم إلى صراعات داخل مجتمعهم الحاكم، وأدخلتهم في دوامة من العنف الدموي فيما بينهم، إذ أخذ حكام الكرج يقتل بعضهم البعض، وهذا أدى إلى تمزق لحمة مجتمعهم الحاكم، وحولهم إلى جماعات متخاصمة، تعيش حالة من الرعب والخوف وتتخبط في تصرفاتها الشريرة التي عانى منها الجميع.

لمواجهة تلك السياسة الشريرة، تجاوز رجال العشائر العراقية خلافاتهم وجمعوا قواهم، وحشدوها ضد المماليك الكرج، وقد شمل ذلك التقارب العشائر العراقية الشيعية منها والسنية.

أن مسألة تقارب العشائر السنية والشيعية في وادي الرافدين لم تكن بالأمر الجديد، ولكنها أخذت في عهد المماليك الكرج أبعاداً جديدة، تتناسب مع عمق وحجم ما اقترفه أولئك المماليك من أعمال لا إنسانية ضد القوى العشائرية السنية منها والشيعية.

تناول هذا الجزء من الكتاب، الذي أضعه بين يدي القارئ الكريم، الأحداث التاريخية في عهد المماليك الكرج، وذلك في محاولة لفهم العوامل الحقيقية التي تفاعلت وأنتجت ذلك النظام، الذي أوغل في قسوته وتعامله الوحشي مع أهل العراق، وخلّف أوضاعاً اجتماعية واقتصادية وسياسية، لازال شعبنا يعاني من أثارها السلبية حتى عصرنا الحاضر.

وضمن إطار هذه الرؤية، أقدم هذه المساهمة المتواضعة، متمنياً أن أكون قد وفقت في إلقاء المزيد من الضوء على تاريخنا الذي لازالت أحداثه مشوشة، علنا نتوصل إلى مفاهيم وقناعات جديدة، تساعدنا في بناء مستقبل أفضل.

محتويات الجزء الرابع

الفصل الأول

وزارة سليمان باشا "أبو ليلة"

مشكلة البصرة

سياسة المرحلة الجديدة

استيلاء الكرج على البصر

الحملة العسكرية على إمارة بابان

مذابح الأيزيدية

وفاة السلطان محمود الأول

مدرسة عسكر المماليك الكرج ببغداد

الكرج وفساد مجتمع بغداد

العلاقة مع اسطنبول

وفاة سليمان أبو ليلة

الفصل الثاني

وزارة علي باشا

عنصرية الكرج

الحملة العسكرية ضد إمارة بابان

الحملة العسكرية ضد بني كعب

محاولة اغتيال علي باشا

مقتل علي باشا
اجتماعات سرية وعهود وقسم
ترشيح عمر باشا
الفصل الثالث
حكومة عمر باشا
الشيخ حمود بن حمد الخزعلي
الحرب ضد الخزاعل وتدمير عاصمتهم
تعاون المماليك الكرج مع إيران وبريطانية
حرب المنتفك والغدر بالشيخ عبد الله الشاوي
استشراء الفساد في حكومة عمر باشا
عمر باشا ونديمه عجم محمد
الطاعون وانهيار إدارة عمر باشا

الفصل الرابع
الكرج وحكومة إيران
شركة الهند الشرقية ومتسلم البصرة
تألق شخصية متسلم البصرة
الجيوش الإيرانية تهاجم البصرة
نهاية عمر باشا
الفصل الخامس
استسلام البصرة للجيش الإيراني
مصطفى باشا وعجم محمد
مصطفى باشا والمماليك الكرج
عودة المماليك الكرج إلى سدة الحكم
وزارة عبد الله باشا
سليم أفندي لاستعادة البصرة
سليم أفندي وعجم محمد
سفارة الشاوي إلى إيران
اشتعال نيران الفتنة بين أحياء بغداد
وزارة حسن باشا الكركوكلي

الفصل السادس
البصرة تحت الحكم الإيراني
عشائر عرب العراق تخوض معركة الأهوار
وفاة كريم خان الزند
عودة سليمان آغا من شيراز
مقتل الشيخ ثامر السعدون
سليمان آغا يطلب منصب ولاية البصرة
ثورة ببغداد وهروب الوالي
بريطانيا تدعم صديقها سليمان باشا

الباب الثاني

الكرج في عهد الباشا الكبير

الفصل الأول

سليمان باشا الكبير

1780م - 1802م

الفصل الثاني

الفرات الأوسط وسلطة الخزاعل

الشيخ حمد آل حمود الخزعلي

الحملة العسكرية ضد الخزاعل

تجفيف مجرى فرات الديوانية

عقد الصلح مع أمارة بابان

حملة عسكرية ضد خزاعل فرات الشامية

حملة سنة 1784م ضد حمد آل حمود

حمد آل حمود القائد المحنك

الفصل الثالث

المماليك الكرج ومشيخة العبيد

تداعيات قضية الشاوي

الجفاف والقحط بالعراق

عودة الشاوي والهجوم على بغداد

تحالف العشائر السنية والشيعية

معارك الوسط والجنوب

معارك الفرات الأوسط

معركة أم الحنطة

حكومة الكرج بعد معركة أم الحنطة

وفاة الشيخ حمد آل حمود

الباب الثالث

ظهور الحركة الوهابية

الفصل الأول

مذهب بن عبد الوهاب

اتفاق الدرعية

الدرعية دار الهجرة والإسلام

غزوات الأمير عبد العزيز

الفصل الثاني

غارات الوهابيين داخل الأراضي العراقية

حملة الشيخ ثويني ومقتله

غارة الوهابيين على المنتفك

حملة علي باشا على الأحساء
معركة الخزاعل والوهابيين بالنجف
هجوم الوهابيين على كربلاء
محاولة اجتياح النجف الأشرف
وفاة سليمان باشا الكبير

الباب الرابع

حكومات الكرج بعد سليمان الكبير

الفصل الأول

وصية الباشا الكبير

وزارة علي باشا
مقتل رئيس العبيد و أخيه

الفصل الثاني

الغزوات الوهابية بالحجاز

اغتيال عبد العزيز آل سعود
حاكم الدرعية الجديد
الدرعية بين البذخ والاستبداد

الفصل الثالث

هجوم الوهابيين على النجف

الشيخ جعفر كاشف الغطاء
سور النجف
هزيمة الغزاة
عرب العراق بين الكرج والوهابيين

الفصل الرابع

الكرج في دوامة الدم

سليمان باشا الصغير
فتن ومعارك ببغداد
مقتل سليمان الصغير
الوالي عبد الله باشا
غارات الوهابيين في الفرات الأوسط
مقتل عبد الله باشا
ولاية سعيد باشا
حملة سعيد باشا على الفرات الأوسط
بين سعيد باشا و أمه نابي خانم
سعيد باشا و حمّادي أبو عقلين
زعيم الكرج الجديد
سعيد باشا والصراف اليهودي عزرة
عصيان سعيد باشا ومقتله

الباب الخامس

آخر المماليك الكرج
الفصل الأول
مسيرة داود باشا نحو الحكم
سياسة داود نحو العشائر العراقية
الفصل الثاني
سقوط الدولة الوهابية
محمد علي باشا والي مصر
مذبحة المماليك الكرج بمصر
الحملة العسكرية المصرية
إبراهيم باشا والمعركة الحاسمة
سقوط الدرعية عاصمة الوهابيين
مذبحة بالدرعية
الفصل الثالث
مشاكل داود باشا مع حكومة القاجار
فتح علي شاه
أمارة بابان في عهد داود باشا
داود باشا و شفلح الشلال
داود باشا وعشيرة الصقور
إجراءات حكومة الكرج
الفصل الرابع
النجف تواجه الخطر الوهابي
الشباب الزكرت
عباس الحداد والسيد محمود الرحباوي
الملالي سدنة الحرم العلوي
الملا محمود و"الشمرت"
مقتل عباس الحداد

الباب السادس

تحول مجرى الفرات
الفصل الأول
النجف تشكو العطش
أميرة من الهند
ولادة فرات الهندية
الفصل الثاني
كيف تحولت منطقة الفرات الأوسط
الحلة و فرات الهندية

مدينة الكوفة الحديثة

الباب السابع

المماليك على طريق الضعف والانحطاط

الفصل الأول

النفوذ البريطاني في القرن التاسع عشر

المقيم البريطاني جيمس ريج

المستر ريج وداود باشا

المخططات البريطانية بالعراق

الفصل الثاني

الغزو الإيراني ووباء الكوليرا

معركة السليمانية

وساطة الشيخ موسى كاشف الغطاء

معاهدة أرضروم الأولى

الفصل الثالث

إلغاء العسكر الإنكشاري

السلطان سليم الثالث

السلطان محمود الثاني

إلغاء الطريقة البكتاشية

داود والعسكر الإنكشاري بالعراق

كيف تلقى داود أمر السلطان

إلغاء الطريقة البكتاشية بالعراق

الباب الثامن

القضاء على حكم المماليك الكرج

الفصل الأول

الصراع بين داود باشا وحكومة السلطان

مبعوث السلطان صادق الدفتري

داود باشا يقتل مبعوث السلطان

صدى مقتل مبعوث السلطان

إجراءات السلطان العسكرية

الفصل الثاني

الحملة العسكرية وتفشى الطاعون

علي رضا يعسكر بالموصل

ماذا حدث ببغداد

قاسم العمري يتحرك

إحراق السراي ومصير العمري

بغداد في قبضة المماليك الكرج
الفصل الثالث

جيش السلطان يزحف نحو بغداد

محنة المماليك الكرج
علي رضا يتحدى المشاكل
الانهيار واستسلام داود باشا
النهاية الدامية

حكم عسكر المماليك الكرج

1749م ـ 1831م

وزارة سليمان باشا "أبو ليلة"

1749م ـ 1761م

في الثامن عشر من تشرين ثاني (نوفمبر) سنة 1749م استولى جيش المماليك الكرج بقيادة سليمان باشا مملوك أحمد باشا على بغداد، وبذلك دخل العراق حقبة جديدة من تاريخه. إذ أقام جيش المماليك الكرج حكومة عسكرية ببغداد تختلف طبيعتها في بعض الوجوه، عن الحكم الدكتاتوري الذي شيده حسن باشا بالعراق.

كان استحواذ المملوك الكرجي سليمان باشا على مقاليد الحكم في تلك الظروف العصيبة بمثابة ضربة قاصمة لإنكشارية بغداد الذين قاسوا الأمرّين في عهد حسن باشا وأحمد باشا اللذين اتبعا ضدهم سياسة متشددة بهدف إضعافهم وتحجيم دورهم العسكري والسياسي في بغداد.

من المعروف أن بغداد كانت قاعدة المماليك الكرج ومركز قوتهم، ولذا لم يواجه سليمان باشا مشاكل كبيرة في بسط هيمنته العسكرية على العاصمة، ولابد أن فرمان السلطان العثماني الذي منح الشرعية لحكومته كان عاملاً مهماً في ذلك، ولكن الأمور خارج بغداد لم يكن قد تم حسمها لصالح حكومة المماليك الكرج، وكان من أهم تلك المشاكل التي واجهت سليمان باشا في بداية حكمه، معارضة قائد الأسطول العثماني الكبوتان (القبطان) بالبصرة، الذي كان يرى أنه أحق من المماليك الكرج بحكومة العراق، ولذا رفض قائد الأسطول بالبصرة الاعتراف بحكومة بغداد الجديدة وأخذ يتحرك ضدها ويعمل على إقامة حكومة بديلة بقيادته، وضمن إطار مساعيه لإقامة مثل تلك الحكومة، سعى الكبوتان إلى كسب تأييد القبائل العراقية بالجنوب كقبائل المنتفك وقبائل بني كعب وباقي القبائل النهرية التي كانت ترفض الحكم العثماني.

استولى القبطان على البصرة وألقى القبض على عدد كبير من أغوات المماليك الكرج وأنصارهم. كان انتصار القبطان وسيطرته على البصرة بمثابة ضربة بالصميم لطموحات المماليك الكرج. لأن خروج البصرة من دائرة نفوذهم في تلك الظروف العصيبة كان يمثل خطراً حقيقياً يهدد مستقبلهم، إذ سيكون بإمكان حكومة

اسطنبول أن تحرك متى شاءت حكومة البصرة ضدهم، وهذا بدوره يمكن أن يحرك ضدهم العشائر النهرية في جنوب و وسط العراق.

استيلاء الكرج على البصرة

في سنة 1750م، جهز سليمان باشا حملة عسكرية كبيرة خرجت من بغداد في 22 تشرين أول وسارت نحو البصرة. بعد خروج الحملة هبت عشائر المنتفك وحشدت قواتها في مختلف المواقع لسد الطرق والمعابر أمام جيش سليمان باشا، أما القبطان فقد تحصن في منطقة مراسي السفن، ولكن حينما وصل جيش سليمان باشا منطقة العرجة انسحب رئيس المنتفك الشيخ منيخير برجاله وتوارى في عرض البادية. بعد أن سيطر جيش الكرج على المنتفك تقدم واستولى على البصرة.

الحملة العسكرية على إمارة بابان

بعد اغتيال نادر شاه انهارت الحكومة المركزية في إيران وانتشرت في طول البلاد وعرضها صراعات محلية حول السلطة، وقد استفاد سليمان باشا أبو ليلة من ذلك الوضع السياسي الذي أضعف الدولة الإيرانية فتحرك لبسط سلطته على إمارة بابان حليفة نادر شاه.

كان أمراء بابان طيلة تلك الفترة يديرون شؤون مناطقهم بصورة مستقلة مستفيدين من الصراعات الإيرانية العثمانية، ولذا ظلت مشكلة أمارة بابان شوكة في جنب حكومات بغداد منذ عهد أحمد باشا، ولكن بعد أن أكمل المماليك الكرج سيطرتهم على وسط وجنوب العراق، توجهت أنظارهم نحو الشمال.

في صيف سنة 1751م جهز سليمان أبو ليلة حملة عسكرية كبيرة وزحف بها نحو مناطق الكورد، وفي الواحد والعشرين من تموز 1751م وصل قنطرة دلي عباس، ومن هناك كتب إلى سليم باشا آل بابان وإلى عثمان باشا وإلى ألوية بابان وكوي وحرير ودرنة وأربيل وزنكنة وطلب من أمراء تلك المناطق الخضوع والطاعة لحكومة بغداد، وهددهم بأشد العواقب في حالة عدم الانصياع. بعد ذلك وبدون أن ينتظر أجوبة أمراء الكورد على كتبه باشر سليمان باشا بالزحف على معاقلهم مما اضطرهم إلى الانسحاب والاحتماء بالجبال.

استولى سليمان أبو ليلة على كركوك، ومنها واصل زحفه نحو أربيل الذي كان فيها قوج باشا بابان. وهناك دارت بين جيش المماليك الكرج والقوات الكوردية معارك دامية استمرت تسعة أيام، تمكن فيها سليمان باشا من سحق مقاومة الكورد والاستيلاء على أربيل وأسر أعداداً كبيرة من المقاتلين الكورد وزعمائهم، وكان

بينهم قوج باشا وعثمان باشا وإخوانه إبراهيم بك وسليمان بك وأبنه حسن بك، وفي أول أيام عيد الأضحى المبارك المصادف 31 تشرين أول سنة 1751م، أمر سليمان باشا بذبحهم جميعاً وإرسال رؤوسهم إلى اسطنبول.

مدرسة عسكر المماليك الكرج ببغداد

لإحكام سيطرته والتوسع في سياسة البطش، شعر سليمان باشا بالحاجة إلى شراء المزيد من الأطفال والجواري والصبيان الكرج من أسواق الرقيق في جورجيا والأقاليم التابعة لها، وكان من المعتاد إدخال أولئك الصبيان إلى مدارس خاصة أقامها أمراء الكرج لتدريبهم وإعدادهم ليكونوا حكام المستقبل. وبعد تخرجهم كانت تسلم أليهم أهم وظائف الحكومة الإدارية والعسكرية، بينما كان يحرم منها أبناء الأسر العثمانية التي كانت تحكم ببغداد قبل تسلط الكرج. ومن الجدير بالملاحظة بأن تلك الأسر العثمانية القديمة كانت من الإنكشارية الذين جاء بهم السلطان مراد الرابع، وهم من أصول أوربية.

الكرج وفساد مجتمع بغداد

إن حصر التعليم في تلك المعاهد بصبيان المماليك الكرج فقط وإقصاء أبناء الإنكشارية وباقي الفئات العثمانية، أثار مشاعر الاستياء والكراهية ضد المماليك الكرج في أوساط المجتمع العثماني ببغداد، لأن تلك السياسة أدت إلى تحويل أبناء المجتمع العثماني القديم إلى طبقة من الدرجة الثانية دون مرتبة المماليك الكرج "الكولمند"، وهكذا أخذت الأسر العثمانية القديمة، وأغلبها من أصول إنكشارية، تجاهر بعدائها لهم، وتعيّرهم بحقارة أصلهم وحداثة النعمة، وأخذ الهمس والغمز ضد الكرج ينتشر في المجالس البغدادية، إذ يبدو أن إغراق مجتمع بغداد العثماني بأعداد كبيرة من أولئك الصبيان الكرج الذين تميز أغلبهم ببياض البشرة وجمال الوجه خلق ظاهرة اجتماعية وأخلاقية لم يعرفها المجتمع البغدادي من قبل، إذ أخذت شبهات الشذوذ الجنسي تحوم حول أولئك الصبيان الذين حُرموا من الجو العائلي الطبيعي، ومن حنان الأهل والوالدين، فقد كانوا يودعون وهم في مرحلة الطفولة أو المراهقة، في مدارس يديرها رجال عُزّاب تحوم الشبهات حول أخلاقهم وسلوكهم الجنسي.

لقد أشار علي الوردي إلى تلك الظاهرة في كتابه "دراسة في طبيعة المجتمع العراقي" وكتابه "لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث" الذي جاء فيه: [1]

"... وهناك ظاهرة اجتماعية أخرى يمكن أن نعزو أحد أسبابها إلى تأثير عهد المماليك، وهي ظاهرة انتشار الانحراف الجنسي في العراق. فالمماليك حين كان يؤتى بهم وهم صبيان إلى بغداد ثم يودعون في المدارس الداخلية الخاصة بهم قد يتعاطون اللواط فيما بينهم، أو يتعاطاه معهم المعلمون ...".

اللافت أن سليمان باشا نفسه لم يسلم من ذلك حتى في بيته، فقد كانت الإشاعات تقول بأن زوجته عادلة خاتون كانت هي الأخرى تحتقره وتتعالى عليه وتتحكم في تصرفاته وتخاطبه بصيغة الأمر، باعتباره أحد مماليك والدها أحمد باشا.

وفاة سليمان أبو ليلة

في أوائل سنة 1761م شعر سليمان باشا بأعراض مرض لازمه قرابة الستة أشهر، وفي النهاية أدى إلى وفاته في صيف تلك السنة.

قضى سليمان باشا مدة اثنتي عشرة سنة في الحكم، وفي أثناء سنوات حكمه استخدم عدداً من الكهيات كان جميعهم من ضباط المماليك الكرج، وحين وفاته كان لديه سبعة كهيات، يقال لهم "أصحاب الداعية" وهم: **عمر** كهية، و**عبد الله** كهية، و **إسماعيل** كهية، و **رستم** كهية، و **حسن** كهية، و **محمود** كهية، وكانوا جميعهم في بغداد، أما السابع واسمه **علي** كهية فقد كان يرابط مع قوة عسكرية كبيرة في منطقة الخزاعل بالفرات الأوسط، ويدعى ضابط الحسكة.

وزارة علي باشا

أحدثت وفاة سليمان أبو ليلة الكثير من الارتباك في أوساط المماليك الكرج ببغداد، إذ اشتعلت نار المنافسة والفتن، بين ذلك العدد الكبير من أولئك الضباط، ويبدو أن أقوى العوامل التي أدت إلى ذلك الوضع، هو أن أولئك الضباط الكرج تمكنوا أثناء فترة حكم سليمان أبو ليلة، من جمع ثروات كبيرة مما نهبوه

---

(1) علي الوردي. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ،ج1ص152

من سكان البلاد. في تلك الفترة العصيبة بقيت بغداد بدون حاكم، وهذا أدى إلى ظهور صراعات سياسية وانتشار الفتن والمؤامرات في الوسط الكرجي، وبعد مناورات ومؤامرات عديدة قررت حكومة اسطنبول تعين علي باشا للمنصب.

عنصرية الكرج

منذ البداية انفجر الصراع على السلطة بين الوالي الجديد علي باشا والكهيات الستة، إذ شن الكرج حملة عنصرية مشبعة بالكراهية ضد علي باشا، على أساس أنه ليس من العنصر الكرجي، وأن أصله إيراني. فمن المعروف أن علي باشا كان طفلاً يتيماً رباه سليمان باشا في بيته، وكان من أخلص الناس لسيده وولي نعمته سليمان باشا، وقد نشأ على مذهب أهل السنة، وكان معروفاً بتدينه وتقواه. ولكن بالرغم من ذلك لم يكن الكرج يثقون به، ولذا أخذوا ينشرون الأراجيف والأقاويل ضده، وتعالت في الأوساط الكرجية صيحات عنصرية طائفية، باعتبار أن علي باشا لم يكن كرجياً، وأن أبويه قدما إلى بغداد من أطراف إيران وليس من جورجيا، فإذا كان أصل والديه من إيران فلابد أن يكون علي باشا حسب زعمهم شيعياً من "العجم" مندساً بين رجال السلطة الحاكمة من المماليك الكرج، ولابد أن ذلك كان سر عدم استعماله القسوة الوحشية في حروبه ضد العشائر العراقية الشيعية ..!، خاصة الخزاعل وبني كعب. من هذا المنطلق أخذت أراجيف المماليك الكرج تتصاعد، وأخذوا يشيعون أن علي باشا ضالع في مؤامرة "شيعية إيرانية" تستهدف إلحاق العراق بإيران.

مقتل علي باشا

كان عمر باشا زوج عادلة خاتون من أبرز المتآمرين على الوزير وأشدهم إلحاحاً لنيل منصب الوزارة، أما بقية الكهيات فقد بدوا مترددين في بادئ الأمر، لأنهم لم يكونوا يثقون بعمر باشا، بل يخافون منه على أموالهم وثرواتهم الطائلة التي جمعوها بحكم مناصبهم، ولذا قبل الأقدام على أي عمل حاسم ضد علي باشا، رأوا أن يستوثقوا من عمر باشا على أموالهم وأملاكهم، ويتأكدوا من أنه لن يتعرض لها بالمصادرة. للتأكد من ذلك ولتجاوز إشكالية الثقة، اجتمع الكهيات الخمسة سراً بعمر باشا وأخذوا منه العهود والمواثيق، وبعد ذلك أقسم الجميع على أن لا يتعرض أي منهم إلى أموال وأملاك الآخرين.

باشر الانقلابين بإطلاق نيران مدافعهم ضد مواقع الوزير، الذي حاول ردعهم وإقناعهم بالعدول عن خطتهم، ولكنه لم ينجح فاضطر إلى الخروج من دار الحكومة متنكراً واختفى في أحد الدور القريبة، غير أن صاحب الدار وشى به لدى قادة الانقلاب الذين قبضوا عليه وقادوه إلى القلعة وقطعوا رأسه.

بعد أن قتل المتآمرون علي باشا، جمعوا رجال الدين والأعيان والوجوه ببغداد، وكتبوا إلى السلطان محضراً رشحوا فيه عمر باشا لمنصب الولاية، ولكي يبرروا فعلتهم لفقوا مجموعة من التهم ضد الوالي المقتول، إذ كتبوا عنه بأنه كان يتآمر مع حكام إيران، وانه اتفق معهم على تسليم بغداد.

حكومة عمر باشا
(1764م ـ1776م)

ارتقى عمر باشا سدة الحكم عبر مؤامرة حاك أطرافها كبار ضباط الكرج، واللافت أن الضباط الكرج مرروا مؤامرتهم ضد علي باشا عبر حملة طائفية ادعت تهاون علي باشا مع العشائر العربية "الشيعية" في وسط وجنوب العراق، وعلى هذا الأساس استهل زعيم الانقلابيين عمر باشا حكمه، بشن حملة عسكرية واسعة ضد الخزاعل الذين تزعموا أكبر تجمع للعشائر العربية الشيعية في وسط العراق، وكانوا يسيطرون على منطقة الفرات الأوسط ذات الكثافة السكانية العالية والغنية بمواردها الزراعية، وكان رئيس الخزاعل في تلك الأيام الشيخ حمود بن حمد.

هو حمود بن حمد بن عباس الخزعلي الذي يعد أعظم رؤساء الخزاعل من بعد عمه الشيخ سلمان بن عباس. في عهد الشيخ حمود بن حمد تعاظم وتوسع دور الخزاعل في إدارة مناطق الفرات الأوسط، وقد تزامن ذلك مع استشراء الفساد وضعف الإدارة الحكومية وغياب الخدمات العامة، إذ كان على العشائر النهرية العراقية ومنها عشائر الفرات الأوسط أن تأخذ بيدها، إدارة حياتها وشؤونها الزراعية بكافة متطلباتها، وقد قُدّر للخزاعل أن يتولوا قيادة قبائل الفرات الأوسط في تلك الحقبة التاريخية المضطربة والمفعمة بالمآسي وويلات الحروب.

الحرب ضد الخزاعل وتدمير عاصمتهم

في أيام رئاسة حمود بن حمد، جرد علي باشا حملة عسكرية ضد الخزاعل، ولكن قبائل الفرات الأوسط تصدت لجيش المماليك الكرج وأنزلت به هزيمة منكرة. في ذلك الجو المحموم المفعم بمشاعر الكراهية وطلب الثأر، جهز عمر باشا حملة عسكرية كبيرة زحفت نحو ديار الخزاعل، وبعد أن اقترب جيش المماليك الكرج من معاقل الخزاعل وخطوطهم الدفاعية، نشبت بين الطرفين معارك عنيفة تمكنت أثناءها مدافع عمر باشا من دك تلك المعاقل، مما سهل على الجنود اختراقها والاستيلاء على عاصمتهم لملوم. بعد احتلال لملوم، نهب عسكر عمر باشا المدينة ثم أحرقوها، ولكن لم يكتفِ عساكر الكرج بتدمير عاصمة الخزاعل، بل انتشروا في المناطق العشائرية يقتلون رجال الخزاعل ويقطعون رقابهم وينهبون أموالهم وممتلكاتهم، وبعد الانتهاء من عمليات القتل والنهب والتخريب وقطع الرقاب، عاد جيش عمر باشا إلى بغداد محملاً بتلك الأموال المنهوبة، ورافعاً على سنان الرماح عدد كبيراً من رؤوس فرسان الخزاعل، كان من

جملتهم رأس الشيخ قرنوص بن سلمان، وناصر بن حسين، ومانع بن حمزة بن شبيب وغيرهم، أما رئيس الخزاعل حمود آل حمد، فقد انسحب إلى البادية مع عدد من رجاله.

تعاون المماليك الكرج مع إيران وبريطانية

في تلك الفترة تعاظمت قوة بني كعب التي سيطر أسطولها النهري في مياه جنوب العراق وقد دخل رجال بني كعب بقيادة الشيخ سلمان الكعبي في معارك طاحنة ضد أسطول المماليك الكرج من جهة، وضد أسطول شركة الهند البريطانية من جهة أخرى، وقد حقق الشيخ سلمان انتصارات كبيرة على الطرفين، مما أثار مخاوف الكرج والسلطات البريطانية، وكذلك مخاوف حكومة إيران من تعاظم قوة كعب وهذا أدى إلى تحالف تلك القوى وتعاونها ضد بني كعب.

" هناك تفاصيل ومعلومات مهمة عن المعارك النهرية التي دارت هناك، وعن تعاون حكومة الكرج مع السلطات البريطانية والسلطات الإيرانية للتصدي لقوة بني كعب، يمكن للمهتمين الإطلاع على تفاصيلها في الجزء الرابع من الكتاب."

حرب المنتفك والغدر بالشيخ عبد الله الشاوي

في سنة 1768م حدثت أزمة شديدة بين متسلم البصرة سليمان آغا ورئيس المنتفك الشيخ عبد الله السعدون بخصوص عدد من مقاطعات البصرة التي وضع شيخ المنتفك يده عليها، ولتلافي تدهور الأمور بعث عمر باشا الشيخ عبد الله الشاوي رئيس عشيرة العبيد للتوسط في حل الأزمة باعتباره مسئول دائرة "باب العرب". وقد تمكن الشاوي من تنظيم لقاء بين رئيس المنتفك وسليمان آغا تم فيه التوصل إلى اتفاق وعقد صلح بين الطرفين.

بعد فترة قصيرة، جهز عمر باشا حملة عسكرية كبيرة ضد المنتفك بحجة أن رئيس المنتفك خالف بنود الاتفاق، وعندما اقترب من ديار المنتفك، حط عمر باشا الرحال وعسكر في منطقة تسمى "أم الحنطة"، غير أن رئيس المنتفك آثر عدم مجابهة ذلك الجيش المدجج بالسلاح وأخلى دياره وتوارى مع رجاله في أعماق الصحراء، وهكذا استولى عسكر المماليك الكرج على المنطقة.

بعد أن استولى الجيش على ديار المنتفك استدعى عمر باشا مندوبه الشيخ عبد الله الشاوي إلى معسكره في أم الحنطة وأمر بقتله.

بعد مقتل الشيخ عبد الله الشاوي بتلك الطريقة الغادرة، اجتمع رجال العبيد في منطقة الدجيل شمال بغداد، وأعلنوا في خريف سنة 1769م الثورة ضد حكومة عمر باشا، وكان على رأس الثوار أولاد الزعيم المقتول وهما سليمان بك الشاوي وأخوه سلطان، وكما تشير الأخبار أخذ رجال العبيد، يتحرشون بالقوافل التجارية الذاهبة إلى بغداد ويقطعون طرق المواصلات. عاد عمر باشا من المنتفك وهاجم عشائر العبيد وقتل الشيخ سلطان أبن الشيخ عبد الله الشاوي وعدد كبير من رجال العبيد.

أحدث مقتل الشيخ عبد الله الشاوي و ولده سلطان، والطريقة الوحشية التي تعامل بها عمر باشا مع ثورة العبيد، هزة عنيفة في المجتمع البغدادي وفي الأوساط العشائرية في مختلف أنحاء البلاد.

استقبل الناس أخبار تلك الأحداث بكثير من الاستغراب، لأن آل الشاوي كانوا من أهل السنة، وكانوا يعدون من حلفاء الحكومة والمتعاونين معها، ولذا فقد كثرت وتضاربت الأقاويل حول الأسباب الحقيقية التي أدت إلى كل ذلك.

استشراء الفساد في حكومة عمر باشا

بحلول السبعينات من القرن الثامن عشر، كان قد مضى أكثر من ستة عقود على عملية تدفق المماليك الكرج على بغداد، وأكثر من عشرين عاماً على استحواذهم على مقاليد الحكم، وأثناء ذلك تمكن الكرج من الهيمنة على مقدرات البلاد وتمكن أمراؤهم من جمع ثروات واسعة وتشييد قصور فارهة لهم ببغداد، وفي تلك الأثناء ظهر جيل جديد من المماليك الكرج من مواليد بغداد، ترعرع في ذلك الجو المترف الفاسد الموغل بالرذيلة.

كان المملوك الكرجي يتدرج في حياته، ويمر بطفولة قاسية تُسحق أثناءها إنسانيته، ثم يتدرج على سلّم ذلك الحكم العسكري حتى يصل القمة ويتسلط على رقاب الناس وفي تلك الأثناء كان يجمع ثروات خيالية عن طريق عمليات الغزو والسلب والنهب، ويعيش حياتاً مترفة في جو مشحون بالكراهية والخوف من أعداء الداخل والخارج. في السنين الأخيرة من حكم عمر باشا انتشر الفساد الأخلاقي في الأوساط الكرجية الحاكمة حتى بلغ الزبى، مما كان له أسوأ الأثر في المجتمع البغدادي، ويبدو أن ذلك الجيل المترف لعب دوراً مهماً في نشر ذلك الفساد الإداري والأخلاقي في أعلى مستويات الحكم.

في تلك الفترة اكتنفت العراق أزمات سياسية واقتصادية أوصلت البلاد إلى حافة الدمار. ومما زاد الطين بلة سلوك عمر باشا الذي بدوره انغمس في حياة الرذيلة والمجون، وترك الأمور بيد مجموعة من الرجال الفاسدين.

عمر باشا ونديمه عجم محمد

في ذلك الجو المفعم بالأزمات السياسية والفساد الإداري والتفسخ الأخلاقي، برز في مجتمع حكام بغداد الكرج شخص من بطانة عمر باشا يدعى"عجم محمد" أي "محمد العجمي"، وتشير الروايات أن عجم محمد هذا جاء إلى بغداد مع أمه من إيران، ولذا عرف في الأواسط البغدادية بعجم محمد، وكان شاباً جميل المحيّا ذا صوت رخيم وله أختان جميلتان تجيدان الرقص[1]، وبهذا الصدد يقول عبد الرحمن السويدي الذي عاش في عصر المماليك الكرج، عن عجم محمد:

"وهو رجل من العجم ... جاء إلى بغداد وكان معه والدته وأختاه وهن راقصات يرقصن عند نساء الأكابر، وهو صغير لا نبات بعارضيه، قيل أنه كان يكتسب بالمؤاجرة، يؤاجر نفسه لمن أراد، وكان آنذاك أمرد جميلاً وكان مجيئه إلى بغداد في أيام المرحوم سليمان باشا."[2]

تمكن عجم محمد، الذي كان يؤاجر نفسه لمن أراد، أن يشق طريقه إلى القمة في ذلك المجتمع الكرجي الفاسد، إذ يقال إنه كان يتعاطى كذلك السمسرة أي "قواد" ويحيي حفلات المجون في مجالس الحكام من المماليك الكرج، فهو يغني وأمه تنقر على الدف وأختاه ترقصان، وبهذه المؤهلات تمكن عجم محمد من التقرب من عمر باشا حتى أصبح قواده الخاص، يجلب له البغايا من بنات الكرج الجميلات، وهكذا أخذ نفوذه يزداد في مجتمع الحكام ببغداد، ويقال إنه كان يفتخر بذلك قائلاً: ما وصلت إلى ما وصلت إليه، إلا بهذه الصنعة الشريفة. تطورت العلاقة الحميمة بين عمر باشا وقواده عجم محمد، فقرر إعلاء مكانته بمنحه مركزاً متميزاً في مجتمع الحكام، ولذلك عينه بمنصب كبير في الديوان أصبح بموجبه بمثابة رئيس المكتب الخاص للوالي وناظر الخزينة.

" للإطلاع على المزيد من المعلومات عن هذا الموضوع، يرجى مراجعة ج4 من الكتاب"

---

(1) عثمان بن سند البصري – مطالع السعود ، ص98

(2) عبد الرحمن السويدي. حديقة الزوراء في سيرة الوزراء، ص64

الجيوش الإيرانية تهاجم البصرة

مع حلول عام 1775م أخذت الإشاعات تنتشر بوجود استعدادات وحشود عسكرية على الجانب الإيراني للهجوم على البصرة، في تلك الأيام لم يكن الوضع العسكري بالبصرة على ما يرام، فالقوة العسكرية بالبصرة كانت قليلة العدة وسيئة التنظيم، ومعظم المدافع غير صالحة للاستعمال، وسور المدينة غير صالح وبحاجة إلى الكثير من الترميم، والغريب أن حكومة عمر باشا لم تكن تدرك تماماً خطورة الأوضاع، مما اضطر السلطات البريطانية حفاظاً على المصالح المشتركة إلى التدخل بشدة للتنبيه إلى ضعف الاستعدادات العسكرية بالولاية، وضرورة الإسراع إلى تلافيها قبل فوات الأوان.

تضافرت جهود البريطانيين مع حكومة الكرج في عمليات الاستعداد للدفاع عن البصرة، وكانت الاجتماعات المشتركة تعقد يومياً بين الطرفين، وكثيراً ما كان المقيم البريطاني يخرج مع سليمان آغا ليتفقدا سوية أعمال ترميم السور والاستعدادات الدفاعية الأخرى، وفي غمرة تلك الأحداث تألقت شخصية سليمان آغا وظهرت قابليته في الإدارة والزعامة وتوطدت علاقاته مع السلطات البريطانية. بينما كان الجميع يعبّرون عن عدم رضاهم عن عمر باشا وينحون عليه باللائمة لتأخر وصول النجدات من بغداد. في شهر آذار، أمر كريم خان الزند جيشه بالزحف على البصرة بقيادة أخيه صادق خان الذي تمكن من عبور شط العرب بقواته بالقرب من القرنة بدون صعوبة تذكر. سخّر البريطانيون كل إمكانياتهم لدعم جهود سليمان آغا في الدفاع عن البصرة، فقد بذل أسطول الشركة البريطانية جهوداً كبيرة لمنع أسطول بني كعب من دعم عمليات جيش كريم خان. وفي عشية الهجوم الإيراني تصدى الأسطول البريطاني للأسطول الإيراني الصاعد من بوشهر باتجاه شط العرب وحال دون مساهمته في ذلك الهجوم. (1)

في اسطنبول قررت حكومة السلطان القضاء على عمر باشا فأرسلت إلى بغداد قوة عسكرية باسم إنقاذ البصرة، ولكن بعد أن وصلت تلك القوة إلى بغداد قضت على عمر باشا. ولكن الغريب أن مصطفى باشا قائد الحملة والذي حل محل عمر باشا لم يذهب إلى البصرة.

تشير الأحداث التي تلت مقتل عمر باشا، إلى أن حكومة اسطنبول كانت مهتمة باسترجاع بغداد أكثر من اهتمامها بمحنة البصرة، فبعد القضاء على عمر باشا أوعز مصطفى باشا إلى أمراء الجيوش التي

---

(1) ستيفن هيمسلي لونكريك. أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ص229

جاءت إلى بغداد بالعودة إلى ولاياتهم بدلاً من السير نحو البصرة، أما هو فقد أمر بمصادرة أموال عمر باشا وأموال أغنياء المماليك الكرج وأعوانهم.

مصطفى باشا وعجم محمد

الغريب في الأمر أن الوالي الجديد مصطفى باشا أخذ يقرّب إليه عجم محمد قواد عمر باشا حتى أصبح موضع اعتماده وخزنداره (بمثابة وزير المالية). وانغمس في حياة المجون والرذيلة ونسى مشكلة البصرة. في أواسط نيسان 1776م نفذت الذخائر والمؤن بالبصرة، وفقد الجميع الأمل في وصول النجدات المرتقبة من بغداد، وفي تلك الأثناء استلم سليمان آغا كتاباً من مصطفى باشا يشير عليه أن يحاول رفع الحصار بدفع مبلغ من المال إلى حكومة إيران وإلا استسلام البصرة.

في اليوم التالي استسلمت حامية البصرة، فدخلها الجيش الإيراني وقبض على سليمان أغا وعدد من رؤساء الجيش وتم إرسالهم إلى كريم خان في العاصمة شيراز. في اسطنبول اجتمع مجلس الحرب وأعلن التعبئة العامة وإعلان الحرب على إيران، ولحشد كل القوى تقرر العفو عن الكرج وتعين زعيمهم عبد الله باشا والياً في بغداد، ولكن عبد الله باشا انغمس هو الآخر في حياة اللهو والفساد في محيط عجم محمد، الذي أزداد نفوذه بفضل التحولات الجديدة، وفي غمرة تلك الأوضاع التي سادت بغداد، أهمل عبد الله باشا مسألة الحرب واسترجاع البصرة من يد القوات الإيرانية.

سليم أفندي لاستعادة البصرة

أمام تقصير عبد الله باشا وإحجامه عن تنفيذ سياسة الدولة في الحرب واسترجاع البصرة، عينت الدولة أحد رجال اسطنبول المتنفذين يدعى سليم أفندي، لإدارة الأمور باعتباره مندوب السلطان في ولاية بغداد. باشر سليم أفندي أعماله ببغداد ولكنه بدلاً من أن يسير في طريق الإصلاح والإيفاء بتعهداته، انزلق هو الآخر وسقط في هاوية اللهو والفساد، وأصبح ألعوبة بيد عجم محمد، الذي سيطر عليه كما سيطر على غيره من حكام بغداد.

سليم أفندي وعجم محمد

يبدو أن سيطرة عجم محمد على سليم أفندي، دفعته أن يطمع بمنصب الوزارة ببغداد، ولكن العادة في تلك الأيام جرت أن يتأهل لذلك المنصب الرفيع من نال منصب الكهية قبل ذلك، فكان على عجم محمد في

تلك الحالة، أن ينال منصب الكهية (الكتخدا)، وبتأثير من عجم محمد تم عزل الكتخدا الكرجي إسماعيل آغا وجرى تعين عجم محمد. هكذا اقترب عجم محمد خطوة أخرى من المنصب المنشود.

اشتعال نيران الفتنة بين أحياء بغداد

ذعر المماليك من ذلك الوضع وما وصلت إليه الأمور، فالتفوا حول زعيمهم إسماعيل آغا، وأخذوا يدعون له بمنصب الولاية، ويجمعون الأنصار حولهم ويشعلون نار الفتنة ببغداد. من الجانب الآخر أخذ محمد الكهية (عجم محمد سابقاً) يدعو لنفسه ويطالب بذلك المنصب، وكان يقف من ورائه سليم أفندي ممثل حكومة السلطان، وبتأثيره انحازت إلى جانبه أغلب الجماعات العثمانية من غير الكرج وبعض الانكشارية بزعامة محمد آغا، بينما انحاز المماليك الكرج إلى إسماعيل آغا. أخذت الأطراف المتنازعة تثير سكان بعض محلات بغداد وتقحمهم في صراعاتها، وحينما ثارت الفتنة انحاز إلى جانب المماليك الكرج جماعات مسلحة من رأس الكرّية "رأس القرية"، وباب الشيخ، والشورجة، بينما انحاز إلى جانب محمد الكهية (عجم محمد) المدعوم من قبل سليم أفندي، جماعات مسلحة من سكان الميدان، والمهدية، والقراغول، ومحلة الفضل، وراحت جماعات مسلحة أخرى أغلبها غير نظامية، تنحاز إلى الجانب الذي يدفع لها مالاً أكثر. هكذا مزقت الفتنة محلات بغداد التي سيطرت عليها الجماعات المسلحة التي أخذت تقيم المتاريس في الأزقة والحارات وتشتبك مع بعضها بعراك الشوارع.

عشائر عرب العراق تخوض معركة الأهوار

في أوائل سنة 1778م شن الحاكم الإيراني غارة عسكرية على الزبير قتل فيها عدداً كبيراً من السكان، وكان من بين القتلى جماعة من أتباع رئيس المنتفك ثامر السعدون، وبعد تلك الغارة شن الحاكم الإيراني حملة عسكرية كبيرة ضد عشائر المنتفك.

لمواجهة عساكر الحاكم الزندي، جمع الشيخ ثامر رجال المنتفك واعتصم بالفضيلية التي تبعد حوالي عشرة كيلومترات من العرجة(1)، واتخذ خطة دفاعية تهدف إلى استدراج القوات الإيرانية إلى كمين داخل الأهوار.

---

(1) كانت العرجة مركزاً عشائرياً غير أنها اندثرت. وتقع خرائبها اليوم على بعد بضعة كيلومترات من مدينة الناصرية.

أخذ رجال العشائر بالتراجع حسب الخطة المرسومة في منطقة الأهوار، بينما كانت القوات الإيرانية تتعقبهم حتى أصبحت داخل الفخ المعد لها. كانت المنطقة عبارة عن أرض منبسطة، يحيط بها نهر الفرات من جانب، ومن الجانب الآخر مياه الهور الذي يصعب اختراقه. بعد دخول القوات الإيرانية تلك المنطقة التي تحيط بها المياه، قام رجال العشائر بقطع خطوط الرجعة عليها وسد المنافذ القليلة بمقاتلين أشداء، ومما عزز موقفهم في ساحة المعركة، وصول تعزيزات عشائرية كبيرة في الوقت المناسب، مما أربك القوات الإيرانية التي حاولت الخروج من ذلك الفخ، ولكنها وجدت نفسها وهي تواجه موانع مائية، وتربة رخوة تغمرها الأوحال.

في خضم ذلك التراجع المربك هلك المئات من القوات الإيرانية، ثم انقضّ رجال العشائر العراقية على الباقين منهم، وبعد قتال دموي شرس أبادوهم عن بكرة أبيهم، وقد قتل في تلك المعركة القائد علي محمد خان نفسه وأخوه، ولم ينج من رجاله سوى نفر قليل، فروا إلى البصرة لينقلوا خبر تلك المعركة الرهيبة، والضربة الماحقة التي سددها رجال العشائر العراقية إلى الجيش الإيراني المحتل. بعد انتهاء المعركة، جمع رجال العشائر العراقية كافة الأسلحة والمعدات التي خلفها الإيرانيون في ساحة المعركة.

وفاة كريم خان والجلاء عن البصرة

في سنة 1779م توفى كريم خان فقرر أخوه صادق خان الانسحاب من البصرة، وإطلاق سراح سليمان أغا وباقي الأسرى. في البداية لم يتمكن سليمان أغا من العودة إلى البصرة، لأن ثامر السعدون رئيس المنتفك الذي سيطر على البصرة منعه من ذلك. بعد فترة قُتل ثامر السعدون في معركة مع الخزاعل وحل محله ثويني العبد الله صديق وحليف سليمان أغا. وبذلك تمكن سليمان أغا من العودة بعد قرابة أربع سنوات من خروج البصرة من سلطة حكومة الكرج.

عهد سليمان باشا الكبير

من الحويزة قدّم سليمان آغا طلباً بواسطة القنصل البريطاني باسطنبول "الباليوز" إلى حكومة السلطان، يشير فيه إلى خدماته السابقة ويطلب لنفسه منصب ولاية البصرة، وفي تلك الأثناء كثّف اتصالاته بيعقوب الصراف وبأصدقائه البريطانيين، الذين شنوا من جانبهم حملة واسعة للمطالبة بعودة سليمان آغا وتسليمه حكومة البصرة.

بفضل الوساطة البريطانية، وجهود الصراف اليهودي يعقوب، صدر بعد وصول سليمان آغا البصرة بفترة قصيرة، فرمان السلطان بتوجيه ولاية البصرة إليه بدرجة وزير وبذلك استحق لقب "باشا". ولكن طموحات سليمان باشا كانت أكبر من ذلك، إذ لم يعد خافياً على الملمّين بالأمور، أن سليمان باشا بمؤهلاته وتجاربه الواسعة كان يرى أنه الزعيم الكرجي الوحيد اللائق والجدير بحكم العراق. ومما يلفت النظر أن ساعده الأيمن في سعيه لتحقيق ذلك الهدف الخطير، كان صديقه الحميم الوكيل البريطاني بالبصرة "مستر لاتوش"، الذي لم ينقطع عن مد سليمان باشا بما كان يحتاجه من أموال لتحقيق ذلك الهدف.

في تلك الأثناء حدثت اضطرابات واسعة في بغداد هرب على أثرها الوالي العثماني وسيطر المماليك الكرج عسكرياً على المدينة التي كانت مهددة من قبل قوات عجم محمد وحليفه أحمد الخليل. من البصرة قدم سليمان باشا التماساً إلى حكومة السلطان لمنحه وزارة بغداد بالإضافة إلى البصرة، ولدعم طلبه أرسل سليمان باشا بمساعدة الوكيل البريطاني، مبالغ كبيرة من الأموال إلى اسطنبول، جرى دفعها إلى المقامات العليا وأصحاب النفوذ في ديوان السلطان. بالإضافة إلى تلك الأموال، نشطت الدبلوماسية البريطانية في اسطنبول وتضافرت جهود ممثل ملك بريطانية "الباليوز" الذي أجرى اتصالات على أعلى المستويات لدعم طلب صديقهم وحليفهم والي البصرة سليمان باشا العائد تواً من الأسر في شيراز.

أمام ذلك الوضع المتردي ببغداد، وبفضل نشاط الدبلوماسية البريطانية، وبتأثير الأموال التي صُرفت بسخاء في اسطنبول، قررت حكومة السلطان توجيه وزارة بغداد مرة أخرى إلى أحد زعماء المماليك الكرج، وفي هذه المرة فاز بذلك المنصب الكبير الوزير سليمان باشا. بعد صدور الفرمان بفترة قصيرة، وفي شهر آذار من سنة 1780م، خرج سليمان باشا من البصرة في طريقه إلى بغداد، ولكن الوزير لم يدخل العاصمة بل استقر بـ(المسعودي) ومن هناك سار نحو ديالى وهاجم رجال عجم محمد وحليفه أحمد الخليل واشتبك معهم في معركة حاسمة انتهت بمقتل أحمد الخليل وهروب عجم محمد نحو ديار اللر، وبعد أن فرض سليمان باشا سيطرته على تلك المناطق، دخل بغداد وتسلم زمام السلطة رسمياً في تموز سنة 1780م.

تسلّم سليمان باشا الكبير زمام الحكم بالعراق وهو في الستين من عمره، وتمكن من الإمساك بالحكم أكثر من عقدين من الزمن، وكانت أخطر المشاكل التي واجهها منذ أيام حكمه الأولى:

. استشراء الفساد الإداري والأخلاقي في مجتمع الحكام الكرج، الذي أخذ أبعاداً خطيرة لم يشهدها المجتمع العراقي من قبل.

. الديون الخارجية خاصة ما كان بذمته للوكالة البريطانية "شركة الهند الشرقية" ولصديقه البريطاني المستر لاتوش.

. انحسار سلطة حكومة الكرج ببغداد عن أغلب أنحاء البلاد خاصة في مناطق العشائر النهرية التي تعد أخصب المناطق الزراعية بالعراق، والتي كانت تسيطر عليها وتديرها سلطات عشائرية شعبية محلية

مثل سلطة عشائر المنتفك وسلطة الخزاعل بالفرات الأوسط وسلطة بني كعب في أقصى الجنوب.

الفرات الأوسط وسلطة الخزاعل

بعد السيطرة على العاصمة كان لابد لسليمان باشا أن يتحرك عسكرياً للسيطرة على المناطق الزراعية في الوادي الرسوبي الخصيب، التي كانت المصدر الرئيسي لإطعام مجتمع حكام بغداد بشقيه المدني والعسكري، والرافد الذي يغذي خزينة بغداد بما تحتاجه من أموال، وكان عليه أن يغدق الأموال الطائلة على المتنفذين باسطنبول ليكسب ودهم ويضمن دعمهم لحكومته، هذا إضافة إلى الأموال التي كان عليه أن يدفعها لخزينة الدولة كرسوم سنوية، فمن المعروف أن سليمان باشا كان يؤدي لخزينة حكومة اسطنبول ألف كيس من النقود سنوياً.(1)

بالرغم من أن جيش المماليك الكرج كان يملك أفتك الأسلحة والمعدات، وبالرغم من الحملات العسكرية الدموية التي شنها حكام المماليك ضد العشائر العراقية فإنهم لم يتمكنوا من سحق إرادة عرب العراق، أو القضاء على الكيانات العشائرية التي حالت دون استقرار حكوماتهم، وكان أقوى زعيم قبلي يهدد وجود حكومة سليمان باشا، الشيخ حمد آل حمود رئيس سلطة الخزاعل بالفرات الأوسط.

الشيخ حمد آل حمود الخزعلي

هو حمد بن حمود بن حمد بن عباس بن محمد بن مهنا بن على الخزعلي، الذي آلت إليه رئاسة الخزاعل في سنة 1777م أي قبل أن تؤول الوزارة إلى زعيم المماليك الكرج سليمان الكبير باشا بثلاث سنوات، وقد دامت رئاسته مدة 22عاماً حتى وفاته في سنة 1799م، وبذلك يكون قد عاصر سليمان باشا أغلب سنين ولايته. يُعَدُّ الشيخ حمد آل حمود أعظم زعماء الخزاعل وأبعدهم صيتاً، فقد اشتهر بقدراته القيادية والإدارية، وبشجاعته وحكمته التي لازالت المحافل الفراتية تتحدث عنها إلى يومنا هذا.

حروب سليمان باشا ضد الخزاعل

في البداية أود أن أشير إلى أن الجزء الرابع من هذا الكتاب يتناول بصورة موسعة حروب سليمان باشا ضد الخزاعل، ويسرد تفاصيل مهمة عن المعارك التي دارت بين عسكر الكرج وعشائر الفرات الأوسط بقيادة الشيخ حمد آل حمود الخزعلي الذي تحول إلى بطل وطني ورمز لتحدي حكم المماليك الكرج في أيام

(1) تاريخ العراق بين احتلالين – عباس العزاوي ج6. ص147

رأسته، ولكن بسبب ضيق المجال في هذا العرض الموجز، وللأهمية تناولت باختصار بعض تلك الأحداث، تاركاً الأمر للمهتمين بهذه الحقبة من تاريخ العراق، الرجوع إلى الكتاب للإطلاع على تلك المعلومات المهمة.

بعد أن سيطر سليمان باشا عسكرياً على بغداد والمناطق المحيطة بها، ظهرت نواياه الحقيقية نحو الخزاعل ورئيسهم حمد آل حمود، أو بالأحرى ظهرت حقيقة طبيعة نظام الحكم القائم الذي شيده المماليك الكرج في بغداد والذي ارتبط وجوده بحروب السلب والنهب وسحق إرادة السكان واغتصاب حقوقهم.

في سنة 1781م بدأت استعدادات واسعة في بغداد لشن حملة عسكرية هدفها القضاء على سلطة الخزاعل برئاسة حمد آل حمود وفرض سيطرة حكومة المماليك الكرج على مناطق الفرات الزراعية التي كانت عشائرها تسيطر عليها وتدير شؤونها بصورة مستقلة.

اصدر سليمان باشا أمراً بعزل رئيس الخزاعل الشيخ حمد آل حمود ونصّب مكانه ابن عمه الشيخ محسن بن محمد، ثم سار على رأس جيش المماليك الكرج نحو الفرات الأوسط حتى بلغ منطقة الشامية حيث استقر على شاطئ الفرات تجاه الديوانية. حينما زحف سليمان باشا بجيشه نحو الفرات الأوسط نهضت عشائر الخزاعل آل حمد و آل السلمان، والعشائر المتحالفة معهم للتصدي لجيش المماليك الكرج، وتحصن المقاتلون في قلاعهم التي تسمى محلياً (سيبايه) وهي قلاع محاطة بمياه الأهوار يصعب على جيوش العدو الوصول إليها.

حاول عساكر الكرج اقتحام تلك الموانع المائية للاشتباك برجال الخزاعل، ولكن جهودهم باءت بالفشل، ولكن سليمان باشا أبى أن يقر بذلك الفشل العسكري، لأنه كان يدرك مخاطر إنهاء حملته العسكرية ضد الخزاعل بتلك الصورة المُذلة.

تجفيف مجرى فرات الديوانية

للخروج من ذلك المأزق الذي نال من هيبته العسكرية والسياسية، قرر سليمان باشا تجفيف الأهوار التي كانت مياهها تحيط بقلاع الخزاعل، وتمنع تقدم العسكر بأسلحتهم الفتاكة نحو المدافعين عن الأرض.

أصدر سليمان باشا أوامره لأفراد الجيش للعمل على سد مجرى فرات الديوانية، وتحويل مياهه إلى جهة أخرى، وبعد جهود مضنية قضاها الجنود في قطع جذوع النخيل ونقل التراب، تمكنوا في سنة 1782م من سد مجرى النهر. ولكن يبدو أن سليمان باشا أعاد حساباته في تلك الأثناء، وقدّر أن الأوضاع لا تسمح له الدخول في معركة ضد الخزاعل، وهكذا اضطر إلى قبول عقد ميثاق للصلح بين الحكومة وسلطة الخزاعل، وبموجب ذلك الصلح أعاد سليمان باشا رئاسة الخزاعل العامة إلى الشيخ حمد آل حمود وقفل راجعاً إلى بغداد.

الحملة العسكرية ضد خزاعل فرات الشامية

لقد أثبتت التجربة أن حروب المماليك الكرج ضد سكان بلاد الرافدين، كانت ظاهرة دائمة ارتبطت بحاجة ذلك النظام العسكري لمنتجات البلاد الزراعية والحيوانية، وللأموال اللازمة لديمومة ذلك النظام وتغطية التزاماته الداخلية والخارجية، ويبدو أن سليمان باشا بالرغم من مؤهلاته وتجربته الواسعة لم يجد مخرجاً من أزماته السياسية والمالية إلا بسلوك طريق أسلافه الكرج في شن الحروب للحصول على ما كان يحتاجه من أموال.

في سنة 1783م عاد سليمان باشا وجهز حملة عسكرية أخرى ضد عشائر الفرات الأوسط، وفي هذه المرة وجه تلك الحملة ضد الشيخ محسن بن محمد الخزعلي الذي آلت إليه مشيخة الخزاعل جانب فرات الشامية، وفي تلك الحملة تمكن من نهب الكثير من الأموال والغلال.

حملة سنة 1784م ضد حمد آل حمود

يبدو أن ما نهبه عساكر الكرج من أموال وغلال في حملة سنة 1783م ضد عشائر الشامية لم يسد حاجات حكومة بغداد، ولذا أعاد سليمان باشا الكرة وشن في هذه المرة حملة عسكرية أوسع ضد عموم عشائر الخزاعل.

زحف سليمان باشا على رأس جيش كبير مدجج بمختلف الأسلحة الفتاكة وسار نحو الفرات الأوسط وحط الرحال في منطقة الشامية حيث نصب جسراً وعبر بجيشه إلى الضفة الشرقية من الفرات أي ما يسمى "الجزيرة"، وسار حتى وصل مدينة لملوم.

كانت عشائر الفرات الأوسط قد تجمعت بقيادة الشيخ حمد آل حمود في مواقع خلف شبكة من الأنهار الفرعية التي يطلق عليها محلياً "كرمات" والمفرد "كرمة"، وكان الشيخ حمد آل حمود قد رسم خطه عسكرية استهدفت استدراج جيش سليمان باشا إلى مواقع مختارة بين تلك الشبكات المائية المعقدة التي لا يعرف مجاهلها إلا أهل الأرض الذين يستمدون حياتهم من عطائها.

بعد أن استقر جيش سليمان باشا حيث أراد له الخزاعل، فتح رجال العشائر ليلاً مياه الأنهار ووجهوها نحو معسكر سليمان باشا مما أربك عساكر المماليك الكرج الذين غمرت الأوحال والمياه المتدفقة خيامهم ومعداتهم مما اضطرهم لرفعها والهروب من المنطقة على عجل. في تلك الأثناء كان رجال الخزاعل قد أحكموا الخطة وحشدوا مقاتليهم في الممرات التي يحتمل أن يستعملها الجيش أثناء انسحابه، وفي تلك الممرات دارت معارك عنيفة تكبد فيها عساكر الكرج خسائر فادحة، وبعد جهود مضنية تمكن سليمان باشا من الانسحاب والهروب بجيشه إلى الحسكة.

بعد تلك الهزيمة المنكرة والمُذلة، قرر سليمان باشا أن يعاقب الخزاعل بسلاح تخريب أنظمة الري وسد مجاري الأنهار التي هي مصدر حياة تلك القبائل النهرية، فأمر بحجز المياه عن فرات الديوانية كما

فعل في حملته العسكرية ضد الخزاعل في سنة 1781م. ولكن بعد سد مجرى النهر، ارتأى سليمان باشا عدم المجازفة بالحرب، ولحفظ ماء الوجه أشاع أن أموراً خطيرة حتمت عليه إيقاف الحرب والعودة إلى بغداد.

المماليك الكرج ومشيخة العبيد

شهد النصف الثاني من القرن الثامن عشر ضعف مؤسسة الحكم وتدهور أوضاعها، وقد تعمقت تلك الظاهرة أيام حكم عمر باشا ورفاقه الذين أهملوا شؤون البلاد وسقطوا في هاوية الرذيلة والصراعات العبثية من أجل السلطة وجمع المال الحرام، وقد أدى بهم الحال إلى توسيع دائرة البطش وسفك الدماء والشك في ولاء وملاحقة كل من هو ليس من عنصر الكرج، وهذا بدوره زاد من ضعفهم وعزلتهم وارتباك مسيرة سياستهم.

في خضم تلك التحولات برز دور مشيخة العبيد السنية في حل المنازعات العشائرية خاصة أيام زعامة الشيخ عبد الله الشاوي، ولكن عمر باشا أقدم في سنة 1769م على قتل الشيخ عبد الله الشاوي رئيس عشائر العبيد وولده الشيخ سلطان، بالرغم من أن آل الشاوي كانوا يشغلون منصب (باب العرب) بديوان الوالي، وبمقتل الشيخ عبد الله الشاوي أثبت المماليك الكرج تمسكهم بسياستهم العنصرية والانفراد بالسلطة المطلقة.

في سنة 1785م عاد الوزير سليمان باشا ليؤكد أن المماليك الكرج لم يتخلوا عن تلك السياسة، وفي هذه المرة تحرك الوزير ضد رئيس العبيد آنذاك الشيخ سليمان بن الشيخ عبد الله الشاوي، فأصدر أمراً بإخراج الشيخ سليمان الشاوي من بغداد.

لقد عودنا الحكام في العهود العثمانية على شن حملات عسكرية ضد المناطق الزراعية بحجة عصيان سكان تلك المناطق، وكانت تلك الحملات العسكرية تنتهي عادة بسلب ونهب أموال ومنتجات سكان تلك المناطق وذلك لسد حاجات خزينة الحكومة، ولهذا السبب بدت حملة سليمان باشا ضد مشيخة العبيد غريبة وخارجة عن تلك السياقات، ونابعة من واقع جديد فرضته التحولات التاريخية لتلك المرحلة، وعلى ما يبدو فإن الحكام الكرج أخذوا يشعرون في تلك الحقبة بعمق عزلتهم وضعفهم إلى حد أنهم أخذوا يشكّون ويخافون حتى من الجماعات التي لم تكن تصنف ضمن الجماعات المعادية، ولذلك سلكوا طريق العنف والقسوة ضد من هو ليس من عنصرهم.

بعد صدور أمر الوزير خرج سليمان الشاوي بأتباعه واستقر في منطقة هور عكركوف "عقرقوف" غربيّ مدينة الكاظمية، فأقبلت عليه هناك جماعات من عشائر العبيد وعشائر أخرى. يبدو أن الوزير خاف من استفحال أمر الشاوي فجهز جيشاً كبيراً وأمره بمهاجمة معسكر الشاوي، مما اضطر الشاوي أن يرحل إلى شمال تكريت، ولكن عساكر الكرج استمروا في ملاحقته، مما اضطره إلى ترك مكانه مسرعاً والذهاب

إلى منطقة الخابور تاركاً أثقاله وراءه. بعد هروب الشاوي من منطقة عكركوف، استولى العسكر على أموال وأثقال الشاوي وعاد إلى بغداد. بعد أن استقر الشاوي بمنطقة الخابور هرب أخوته من بغداد والتحقوا به.

مكث سليمان الشاوي عدة شهور بالخابور، وفي تلك الأثناء توافدت عليه جماعات من العبيد ومن عشائر أخرى سار بهم نحو موقع تابع لقضاء عانة، ولمواصلة المطاردة أرسل سليمان باشا قوات عسكرية لتلاحق رجال العبيد، ولكن رجال العبيد هاجموا عساكر الكرج في الفلوجة، وبعد معركة شديدة تمكنوا من قتل عدد كبير من أمراء وعساكر الوزير وأسر قائد الجيش نفسه وعدد آخر من أمراء الكرج.

بعد مرور شهر ظهر رجال العبيد بصورة مفاجأة في منطقة الكاظمية في محاولة للاستيلاء على جانب الكرخ من بغداد، ولكن سليمان باشا حشد كل ما لديه من قوات عسكرية للتصدي لرجال العبيد ودارت بين الطرفين معارك ضارية أنسحب الشاوي بعدها إلى شفاثة ومنها إلى ديار المنتفك.

تحالف العشائر السنية والشيعية

سار الشيخ سليمان الشاوي نحو ديار المنتفك وحل ضيفاً على الشيخ ثويني، وبالرغم من شحه المعلومات عما دار بين الشاوي وثويني رئيس المنتفك، فمن المعروف أن الشيخ ثويني كتب إلى الشيخ حمد آل حمود زعيم الفرات الأوسط يدعوه للمشاركة في إعلان ثورة عشائرية عامة ضد حكومة المماليك الكرج، وأن حمد آل حمود استجاب له وحشد عشائر الفرات الأوسط لتأخذ دورها في تلك الثورة التي جمعت لأول مرة عشائر دجلة في شمال بغداد بزعامة رئيس العبيد الشيخ سليمان الشاوي، وعشائر الفرات الأوسط برئاسة الخزاعل، وعشائر الجنوب برئاسة المنتفك، وعلى أثر هذا الاتفاق العربي أرسل الشيخ ثويني أخاه (صقر) على رأس حملة من أبناء عشائر المنتفق والعشائر المتحالفة معهم إلى مدينة البصرة واستولى عليها واسر متسلمها.

أثار قيام ذلك الحلف العشائري الذي جمع العشائر العربية السنية والشيعية، الرعب في الأوساط الكرجية الحاكمة ببغداد، خاصةً بعد أن وردت أخبار استيلاء رجال المنتفك على مدينة البصرة. لمواجهة تلك التطورات الخطيرة تحرك سليمان باشا وباشر فوراً بحشد كل ما لديه من قوات عسكرية، ثم كتب إلى أمراء الكورد يأمرهم بالقدوم إلى بغداد بما لديهم من مقاتلين، فقد كتب إلى إبراهيم باشا متصرف بابان وكوي وحرير، وإلى عبد الفتاح باشا متصرف درنة وباجلان، ولكن أمراء الكورد لم يشاءوا المساهمة في قمع ثورة عرب العراق، ولذا لجأوا إلى المماطلة بدعوى صعوبة جمع القوات وإعدادها للسفر بهذه السرعة، ولكن بعد ضغوط شديدة وتهديدات، جاء أمراء الكورد إلى بغداد وبمعيتهم قوات صغيرة غير كاملة التجهيز، مما أثار غضب سليمان باشا الذي أمر بعزل أولئك الأمراء وحجزهم ببغداد، ثم بعث أخ أحد أخوان الأمراء

المحجوزين إلى ديار الكورد لجلب القوات المطلوبة، وأكد عليه الاستعجال والعودة بسرعة.

بعد أن أكمل سليمان باشا استعداداته العسكرية خرج من بغداد في 12جمادي الأول (أوائل الشهر الثالث لسنة 1787م) وزحف بجيوشه نحو الفرات الأوسط، وحينما ورد الديوانية، وجد أن الشيخ حمد آل حمود قد حشد عشائر الفرات الأوسط للتصدي لقوات حكومة بغداد ومنعها من التقدم جنوباً نحو البصرة.

في منطقة الفرات الأوسط دارت معارك طاحنة بين جيش سليمان باشا ورجال الخزاعل الذين كانوا يقاتلون عساكر الكرج من موقع إلى آخر، وهكذا تواصلت تلك الحرب المدمرة أشهراً عديدة نتيجة صمود رجال عشائر الفرات الأوسط. ولكن في النهاية تمكن جيش سليمان باشا من كسر مقاومة عشائر الفرات الأوسط وتشتيت جموعها، مما اضطر الشيخ حمد آل حمود إلى الانسحاب بمن تبقى من رجاله جنوباً نحو المنتفك.

بعد الاستيلاء على منطقة الفرات الأوسط، زحف سليمان باشا بجيشه الكبير جنوباً نحو ديار المنتفك حتى وصل منطقة (أم العباس)، في تلك الأثناء كانت العشائر العراقية قد حشدت مقاتليها من رجال المنتفك والخزاعل والعبيد، في منطقة تسمى (نهر عمر) [1]، ويقال إن أعدادهم بلغت أكثر من عشرين ألف مقاتل ما بين فارس وراجل. في 13 تشرين الأول (أكتوبر) سنة 1787م تقدم رجال العشائر العراقية واشتبكوا مع جيش الوزير ودارت بين الطرفين معركة طاحنة في منطقة (أم الحنطة) انتهت بتشتيت جموع العشائر الذين قُتل منهم أكثر من ثلاثة آلاف فارس وعدد أكبر من المشاة.

---

(1) من أنهار البصرة المندرسة بين مدينة البصرة والقرنة، وكان يعرف قديماً باسم نهر ابن عمر، نسبة إلى والي البصرة عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن مروان

ظهور الحركة الوهابية

في عهد سليمان باشا الكبير ومنذ عام 1790م، أخذت العشائر النجدية الوهابية تهدد الأراضي العراقية، بعد أن استفحلت الحركة الوهابية في نجد، إذ ظهرت جماعات بدوية على الحدود من جهة الصحراء، تضع على إبلها علامات بارزة تحمل رقاعاً دينية غريبة، وصارت تغزو مراعي العشائر العراقية، ومنها مراعي الظفير والمنتفك وخزاعل الشامية، وقد دخل ذلك التهديد مرحلة جديدة خاصة بعد استيلاء الوهابيين على الأحساء سنة 1796م.

سميت تلك الحركة التي انطلقت من نجد "بالوهابية"، نسبة إلى مؤسسها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الذي ولد في"العيينة" وهي إحدى قرى نجد، وذلك في سنة 1703م وكان والده قاضي تلك القرية.

تعد نجد منطقة صحراوية منعزلة ذات مناخ قاري متطرف، وهي قليلة الموارد لشحه أمطارها، وكان جل سكانها من البدو الذين لا يرون في تلك المناطق الصحراوية المعزولة سوى أنفسهم، وقد فرضت تلك البيئة الصحراوية القاحلة على تلك الجماعات البدوية الغير منتجة، الالتجاء إلى أعمال السطو والسلب والنهب لتأمين بقائها، ولما كانت مناطق أولئك الأعراب ممراً للقوافل السائرة بين العراق والحجاز ومنها قوافل الحج فقد عاش أعراب نجد على قطع الطريق على تلك القوافل ومهاجمتها ونهب أموالها، وفي أحسن الحالات فرض إتاوات معينة عليها لقاء مرورها بسلام. في تلك البيئة البدوية الفقيرة ولد ونشأ محمد بن عبد الوهاب وبدأ تعليمه الديني على يد والده وهو أحد فقهاء المذهب الحنبلي، ثم أخذ يتنقل لمواصلة دراسته الدينية ويقال أنه درس في مكة و المدينة والبصرة وبغداد.

كان العالم الإسلامي في تلك الحقبة التي عاش فيها محمد بن عبد الوهاب، يعاني من ظلم حكام أفسدتهم شهوة الحكم، وأبعدتهم نزعة التسلط عن السبيل السوي، فأشعلوا نيران حروب سالت فيها الدماء أنهاراً ودفعت بالمجتمعات الإسلامية إلى هاوية الدمار الاقتصادي والاجتماعي. ولكن الغريب في الأمر أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب تجاهل الأسباب الحقيقية التي كانت وراء الفقر والجهل والظلم الذي ساد في تلك المجتمعات الإسلامية، وبدلاً من أن يحاسب الأنظمة الاستبدادية والحكام الذين طغوا بالأرض، أخذ يحاسب الضحايا المظلومين الذين جارت عليهم الحياة وأفقدتهم الثقة بحكامهم، فاستغاثوا بمقامات الأنبياء والأولياء، يشكون إليها ظلم الظالمين، ويتوسلون بها، ويتضرعون إلى أصحابها، طالبين منهم العون لحل مشاكلهم، والحماية من شر الأشرار وجور الظالمين.

اتفاق الدرعية

لقد أنكر الشيخ بن عبد الوهاب على المسلمين مثل تلك الممارسات، فحينما ذهب إلى المدينة المنورة، شاهد المسلمين يستغيثون بقبر النبي ويتوسلون إليه لحل مشاكلهم، فأنكر عليهم ذلك وأعتبر

الاستغاثة بقبور الأنبياء والأولياء شركاً بالله، وفي البصرة شاهد الناس يتوسلون بالمقامات ويطلبون الشفاعة والعون لحل مشاكلهم التي تفاقمت وعجزوا عن مواجهتها، فأخذ ينتقدهم بشدة ويلومهم على ذلك ويشكك بإسلامهم وعقائدهم، مما أثار استياء الناس فطردوه من المدينة ولاحقوه وهم ينوون قتله، فهرب نحو الصحراء وكاد يموت من العطش.

في سنة 1730م ذهب الشيخ بن عبد الوهاب إلى قرية بنجد تدعى "حريملة" وأخذ يبشر بآرائه التكفيرية، ولكن السكان اختلفوا في أمره إذ أيده البعض وخالفه آخرون، ثم طارده خصومه يبغون قتله فهرب إلى قريته "العيينة". وكان حاكمها يدعى عثمان بن حمد فاستقبله وأكرمه ووافق أن يحميه بشرط أن يدعو محمد بن عبد الوهاب الناس إلى طاعة الأمير الحاكم، فامتثل بن عبد الوهاب لأمر الحاكم، وأخذ يدعو الناس لطاعته باعتباره الحاكم الشرعي، ولكن بعد مدة اضطر الحاكم عثمان بن حمد إلى إخراج بن عبد الوهاب من العيينة.

في سنة 1747م سار بن عبد الوهاب إلى قرية "الدرعية" التي كان يحكمها محمد بن سعود الجد الأعلى لآل سعود. بعد أن حل الشيخ بن عبد الوهاب بالدرعية زاره الأمير محمد بن سعود، وفي ذلك اللقاء أبدى ابن سعود تأييده لدعوة بن عبد الوهاب، بشرط أن يعلن بن عبد الوهاب ولاءه للأمير بن سعود، ويبايعه باعتباره الحاكم الشرعي بنجد كلها. لم يتردد بن عبد الوهاب في مبايعة الأمير محمد بن سعود، وقال له:

" ترى نجد كلها وأقطارها أطبقت على الشرك، فأرجو أن تكون إماماً يجتمع عليه المسلمون وذريتك من بعدك". ولكن الأمر لم يقف عند ذلك الحد، بل طلب بن عبد الوهاب من الأمير محمد بن سعود باعتبار أنه أصبح الحاكم والأمام الشرعي، أن يبايعه هو الأخر بالرئاسة الدينية، ويجعلها وراثية كذلك، ويحصرها في أعقابه من بعده.

هكذا قامت بالدرعية حكومة على رأسها أمير بدوي سعودي، تسلط على رقاب الناس بقوة السيف، وقد أخذت تلك الحكومة شرعيتها من الشيخ بن عبد الوهاب الذي جعل الحكم فيها وراثياً، وثبته في آل سعود. وبالمقابل بايع الأمير بن سعود الشيخ بن عبد الوهاب وأقر له بالرئاسة الدينية وجعلها وراثية وثبتها في آل الشيخ.

كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب من المتمسكين بمنهج الإمام ابن تيميه، ومن الذين يقرّون بشرعية الحاكم المتغلب والقاهر بالسيف، ومن المعروف إنه كان يؤكد على وجوب السمع والطاعة لأئمة المسلمين برهم وفاجرهم، ما لم يأمروا بمعصية الله. وهكذا أقام ابن عبد الوهاب تحت شعار محاربة الشرك حكماً بالدرعية يحتكر فيه آل سعود وآل الشيخ ابن عبد الوهاب السلطة المطلقة الدنيوية والدينية ويتوارثونها معاً جيلاً بعد جيل، تلك السلطة التي لا تعطي الأمة الحق في المعارضة، أو الخروج على الحاكم الظالم أو توجيه النقد إليه.

هكذا أقام بن عبد الوهاب بصورة عملية، كيان دولة مستبدة، أحلت أوثاناً من البشر محل الأوثان التي كان يدعي محاربتها ويدعو إلى أزالتها، وأوجد بدعة في الحكم، لم يسبق لها مثيل في تاريخ الإسلام، وذلك باسم محاربة البدع وخلق مجتمع إسلامي مثالي يُخرج الناس من الكفر ويُعيدهم إلى الإسلام الحق، الذي يتمسك بكتاب الله وسنة رسوله.

الدرعية دار الهجرة والإسلام

بعد أن بايع بن عبد الوهاب الأمير بن سعود، باعتباره إماماً وحاكماً لدولة الإسلام الجديدة، أفتى بكفر باقي المسلمين واعتبرهم مرتدين إلى الجاهلية الأولى، وأصدر أمراً لأتباعه بالانفصال عن مجتمعاتهم والهجرة إلى الدرعية عاصمة الدولة الجديدة التي أعلنها "دار هجرة وإسلام".

ثم أعلن بلاد جميع المسلمين بما في ذلك أقاليم نجد "دار حرب"، وأهدر دماء جميع المسلمين وسماهم "بالمشركين" واستحل دماءهم وأموالهم ونساءهم وقد شمل ذلك حتى القبائل البدوية في شبه الجزيرة العربية. وهنا لابد أن نلاحظ أن حملة التكفير التي رفع شعارها ابن عبد الوهاب، شملت السلطان العثماني والدولة العثمانية التي كان أغلب سكانها من أهل السنة بمختلف مذاهبهم، والذين كان علماؤهم يقرون بالخلافة العثمانية، ويعتبرون السلطان العثماني خليفة المسلمين الشرعي. وكان يعتبر الشيعة مشركين وكان يسميهم (الرافضة)، وكان يروي حديثاً ينسبه إلى الرسول (ص) مخاطباً علي بن أبي طالب، يقول فيه: يا علي سيكون في أمتي قوم ينتحلون حب أهل البيت لهم نبز يسمون الرافضة قاتلوهم فإنهم مشركون.

أوردنا تفاصيل ومعلومات مهمة تخص حروب الأمير بن سعود وتوسع دولته، يتعذر سردها في هذا العرض الموجز، ولكن يمكن الإطلاع عليها بمراجعة (ج 4) من الكتاب.

غارات الوهابيين داخل الأراضي العراقية

كانت أول حروب الوهابيين التوسعية خارج نجد مع قبيلة بني خالد أمراء الأحساء، الذين يعدون إحدى أكبر أربع قبائل كانت تسيطر على شرق الجزيرة العربية مما يلي العراق. في بداية التسعينات من القرن الثامن عشر ظهر الوهابيون غربي الفرات، حيث أخذت إبلهم التي تحمل شارات بارزة وشعارات دينية، تدخل مراعي القبائل العراقية، مثل الظفير والمنتفك والخزاعل وشمر وغيرها، وفي تلك الأثناء كان دعاة الوهابية يفدون على مضايف العشائر الفراتية يبشرون بالفكر الوهابي ويحرضون الناس ضد الحكم العثماني، ولكن جهودهم في التأثير في العشائر العراقية كان محدوداً.

حملة الشيخ ثويني ومقتله

في عام 1796م وردت الأخبار، أن عبد العزيز بن سعود أرسل جيشاً بقيادة ولده سعود إلى الأحساء واستولى على القطيف والعقير واكتسح كافة القرى والنواحي حتى ساحل الخليج، وفي تلك الأثناء أشيع أن

الوهابيين قتلوا نحو مائتين من العلماء، مما أثار مخاوف الدولة العثمانية، ولمواجهة ذلك التهديد الوهابي أصدر السلطان العثماني أمراً إلى سليمان باشا الكبير، لتجهيز حملة عسكرية لمحاربة الوهابيين، غير أن سليمان باشا قرر أن يكلف الشيخ ثويني بالمهمة. ولأهمية تلك الحملة العسكرية أمر الوزير أن يلتحق بجيش الشيخ ثويني حملة البنادق البلوش المرابطون بالبصرة مع خمس بطاريات مدفعية، والتحقت به كذلك عشائر المنتفك والزبير والظفير وعشائر بني خالد التي نزحت إلى العراق بعد أن استولى الوهابيون على الأحساء. ولكن الشيخ ثويني اغتيل بطعنة حربة من أحد العبيد. بعد مقتل الشيخ ثويني أنهار جيشه وتفرقت قواته في كل صوب، فتبعهم الوهابيون وتمكنوا من قتل أعداد كبيرة منهم وسلب أموالهم من الإبل والغنم والمتاع وغير ذلك، وقتل الوهابيون في تلك الأثناء، قوات البلوش وسلبوا بنادقهم وغنموا المدافع ونقلوها إلى الدرعية.

غارة الوهابيين على المنتفك

بعد تلك الأحداث وفي شهر رمضان سنة 1797م أغار الوهابيون على سوق الشيوخ بالمنتفك، وهاجموا قرية "أم العباس" ونهبوها بعد أن قتلوا فيها خلقاً كثيراً من الرجال والنساء والأطفال، ثم سار الوهابيون نحو السماوة، وأغاروا على مجموعة كبيرة من العشائر العراقية الرعوية المجتمعة في منطقة العيون المعروفة بماء (الأبيّض) وكان منها عشائر من شمر مع رئيسهم مطلق بن محمد الجربة الفارس المشهور، وقبائل الظفير وآل بعيج والزقاريط وغيرهم، فنشبت بين الطرفين معارك دموية ضارية قتل أثناءها مطلق بن محمد الجربة. في تلك الغارة تمكن الوهابيون من سلب الكثير من الإبل والمتاع.

حملة علي باشا على الأحساء

كان لمقتل الشيخ ثويني وكارثة انهيار جيشه وما أعقب ذلك من وقائع، وقع شديد على حكومة المماليك الكرج ببغداد، ولذا اهتم سليمان باشا بالأمر وعهد إلى كتخداه علي باشا بتجهيز حملة عسكرية كبيرة لحرب الوهابيين. أمضى علي باشا أشهر الصيف في إعداد الحملة التي حشد فيها خمسة آلاف إنكشاري مع عدد كبير من المدافع، وفي أوائل تشرين الأول (أكتوبر) من سنة 1797م، خرج من بغداد على رأس تلك الحملة الكبيرة وسار نحو البصرة، حيث التحق بالحملة رجال العشائر العراقية من المنتفك وعقيل والعبُيد وشمر وقشعم والظفير وعشائر أخرى، وحينما مر بالزبير، استخدم خمسة آلاف من النجادة من حملة البنادق. بدلاً من الذهاب إلى الدرعية سار علي باشا نحو مدينة الأحساء، ومن هناك حاول التوجه نحو الدرعية ولكنه فشل في ذلك، بعد أن فقد أعداداً كبيرة من الرجال والجمال، من شدة الحر والعطش.

في تلك الساعات العصيبة استلم علي باشا كتاباً من سعود هذا نصه :

"من سعود عبد العزيز إلى علي، أما بعد، ماعرفنا سبب مجيئكم إلى الأحساء وعلى أي منوال جئتم. أما أهل الأحساء فهم رُفّاض (أي شيعة) ملاعين ونحن جعلناهم مسلمين بالسيف،... ولا يوجد بيننا وبينكم مغاضنة إلا ثويني، فهو كان المعتدي ولقي جزاءه، فالآن مأمولنا المصالحة وهي خير لنا ولكم، والصلح سيد الأحكام."(1)

بعد مداولات تصالح علي باشا مع الأمير السعودي وقفل راجعاً إلى بغداد ودخلها في شهر تموز سنة 1799م، بعد أن غاب عنها قرابة عشرة أشهر.

معركة الخزاعل والوهابيين بالنجف

بعد عقد الصلح، قدمت في تلك السنة قافلة من نجد إلى العراق للاكتيال، وكان يحرسها رجال من الوهابية، وبعد أن باعت القافلة ما عندها في بغداد واشترت ما كانت بحاجة إليه، وفي طريق العودة مرت القافلة بالنجف، وقد صادف وجود جماعة من الخزاعل من آل السلمان جاؤوا إلى النجف لأداء مراسم الزيارة، ويقال إن الوهابيين شاهدوا رئيس جماعة الخزاعل يقبّل عتبة باب ضريح الأمام علي بن أبي طالب، فحملوا عليه وقتلوه، وفي الحال نشب قتال شديد بين الخزاعل والوهابيين دام أكثر من ثلاثة ساعات، وقد قَتَلَ رجال الخزاعل عدد كبير من فرسان الوهابيين ونهبوا أموال القافلة. أشار صاحب الدوحة إلى ذلك الحادث فقال:

"...وفي هذه الأثناء وردت الأنباء بهجوم الوهابيين على النجف فتصدت لهم عشيرة الخزاعل وقتلت منهم حوالي الثلاثمائة قتيل، ولما كان تصرّف الوهابيين هذا يتنافر مع شروط الصلح فقد استاء منه الوزير وفكر في ضربهم."(2)

هجوم الوهابيين على كربلاء

في أوائل سنة 1802م وردت من شيخ المنتفك حمود الثامر إلى سليمان باشا معلومات تقول إن جيشاً وهابياً يسير نحو العراق يريد الانتقام لحادثة النجف، وكان سليمان باشا قد تجاوز الثمانين من عمره ومصابا بداء المفاصل، فترك المهمة للكهية علي باشا، ولكن يبدو أن علي باشا لم يكن راغباً في أداء تلك

---

(1) رسول الكركوكلي– دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء، ص208

(2) رسول الكركوكلي– دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء، ص212

المهمة، لذا تمهل في السير لمواجهة الوهابيين، وبينما كان على ذلك الحال، جاءت الأخبار بهجوم الوهابيين على كربلاء.

حدث الهجوم في يوم 22 نيسان من سنة 1802م الموافق يوم 18 ذي الحجة من سنة 1216هـ وهذا هو يوم "عيد الغدير" الذي يذهب فيه شيعة العراق لزيارة النجف، وكان معظم سكان كربلاء بالنجف لأداء مراسم الزيارة. وبالرغم من أن السكان حاولوا إغلاق أبواب المدينة، ولكن المهاجمين تمكنوا من كسر إحدى الأبواب واقتحامها، قال لويس دوكورانسي:

"... وقد انتظر عبد العزيز حلول موعد العيد لمحاولة الاستيلاء على البلدة، وقام بتنفيذ خطته... يوم الحج إلى مقام علي، فكانت البلدة شبه مقفرة. وفجأة ظهرت ستة آلاف ناقة يمتطيها أثنى عشر ألفاً من الوهابيين الذين قضوا بسهولة على المقاومة التي واجهتهم. وقد أثارتهم المقاومة فعمدوا إلى القتل بدون تميز، حتى أنهم بقروا بطون النساء الحوامل لكي لا يبقوا أي ذكر في البلدة، وقد قيل أن عدد الضحايا في ذلك اليوم بلغ الثلاثة آلاف. وكانت الأسلاب هامة لدرجة كبيرة، وكان قبر الأمام مغطى بسجاد مطعمة بالمجوهرات وبعضها نادرة الحجم، فأصبح هذا الكنز وغيره من الكنوز الواردة من فارس غنيمة للوهابيين. وهدموا المسجد والمآذن، كما جردوا القبة من صفائح النحاس المذهب الذي اعتقدوه من الذهب الخالص. وحُمّلت مائتا ناقة بالكنوز وسيقت إلى الدرعية، وأنهى عبد العزيز الحملة بتلك المغانم الضخمة من دون أن يخسر رجلاً واحداً من رجاله."(1)

أما المؤرخ الوهابي عثمان بن بشر فقد قال في كتابه (عنوان المجد في تاريخ نجد):

"إن سعود سار بالجيوش المنصورة والخيل العتاق المشهورة، من جميع حاضر نجد وباديها، والجنوب والحجاز وتهامة وغير ذلك، وقصدوا أرض كربلاء ونازل أهل بلد الحسين، فحشد عليها المسلمون وتسوروا جدرانها ودخلوها عنوة، وقتلوا غالب أهلها في الأسواق والبيوت، وهدموا القبة الموضوعة بزعم من أعتقد فيها على قبر الحسين، وأخذوا ما في القبة وما حولها، وأخذوا النصيبة التي وضعوها على القبر وكانت مرصوفة بالزمرد والياقوت والجواهر، وأخذوا جميع ما وجدوا بالبلد من الأموال والسلاح واللباس والفرش والذهب والفضة والمصاحف الثمينة وغير ذلك مما يعجز عنه الحصر، ولم يلبثوا فيها إلا ضحوة وخرجوا منها قرب الظهر بجميع تلك الأموال، وقتل من أهلها قريب ألفي رجل، ثم أن سعوداً أرتحل منها فجمع الغنائم وعزل أخماسها، وقسم باقيها على المسلمين غنيمة للراجل سهم وللفارس سهمان." (2)

---

(1) لويس دوكورانسي – الوهابيون (تاريخ ما أهمله التاريخ)، ص77

(2) أحمد الكاتب – جذور الاستبداد في الفكر السياسي الوهابي

ولم يلبثوا فيها إلا ضحوة وخرجوا منها قرب الظهر بجميع تلك الأموال، وقتل من أهلها قريب ألفي رجل، ثم أن سعوداً أرتحل منها فجمع الغنائم وعزل أخماسها، وقسم باقيها على المسلمين غنيمة للراجل سهم وللفارس سهمان." (1)

كان الكاتب الوهابي عثمان بن بشر صريحاً بخصوص مذابح الوهابيين في كربلاء والتي بيّن فيها أن سعود بن عبد العزيز هاجم كربلاء على حين غرة بقصد القتل والنهب والتدمير وليس لدعوة الناس للإسلام. فهو لم يدعُ سكان مدينة الحسين إلى الإسلام، ولم يهتم إذا كان أي من السكان يريد اعتناق الدعوة الوهابية مما يؤكد أن اجتياح مدينة كربلاء، لم يكن من أجل الدعوة للإسلام بل من أجل تدمير البلد وقتل سكانها ونهب خزائنها، كما كانت تفعل القبائل الهمجية حينما تهاجم المراكز الحضرية.

هذا ما فعله الوهابيون بسكان كربلاء، وإن التاريخ يشير إلى أن ما حدث في كربلاء لم يكن حالة خاصة أو حدثاً معزولاً في سجل أفعال الوهابيين، وإنما كان هو القاعدة. حسب ما أكده المؤرخ الوهابي عثمان بن بشر، على إنه سجية من سجاياهم وجوهر عقيدتهم التي انطلقت من بيئة نجد البدوية التي تستحل دماء الآخرين ونهب أموالهم.

وقد قال عثمان بن بشر في الرد على الذين احتجوا على مذبحة كربلاء:

"... وقولك أننا أخذنا كربلاء وذبحنا أهلها، وأخذنا أهلها فالحمد لله رب العالمين، ولا نعتذر عن ذلك ونقول: وللكافرين أمثالها..." (2)

لقد كتب ابن خلدون في مقدمته، قبل ولادة الدولة الوهابية بعدة قرون، عن أهل البداوة والحكومات البدوية، فقال:

"... إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب، والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خُلقاً وجِبِلّةً ...

... لذلك فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران هذا في حالهم على العموم، وأيضاً فطبيعتهم نهب ما في أيدي الناس، وأن رزقهم في ظلال رماحهم، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حدٌّ ينتهون إليه بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون نهبوه فإذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك بطلت السياسة في حفظ أموال الناس وخرب العمران... إنما همهم ما يأخذونه من أموال الناس نهباً أو غرامة فإذا توصلوا إلى ذلك وحصلوا عليه أعرضوا عمّا بعده من تسديد أحوالهم والنظر في

---

(1) أحمد الكاتب – جذور الاستبداد في الفكر السياسي الوهابي

(2) أحمد صبحي منصور – جذور الإرهاب في العقيدة الوهابية ، الفصل الأول عن مذبحة كربلاء

مصالحهم."(1)

بهذه الروح جاء أهل البداوة من نجد القاحلة، إلى كربلاء التي يروي واديها الخصيب نهر الفرات مهد الحضارات، وأن سكان كربلاء أهل الحرف والصنائع الذين يسميهم أبن خلدون أهل العمران، كانوا ضحايا رجال من أهل البداوة لا يعرفون معنى الحضارة أو مهارات الإنتاج التي تصنع الحياة، ولذا فهم يفتخرون بسفك الدماء ويبشرون بالموت وتخريب العمران.

أن تجربة التاريخ تؤكد أن المفاهيم التي تولد في البيئة البدوية المحرومة من أبسط مقومات الحياة، تتحكم في حياة وتصرف وعقلية الإنسان الغير منتج والذي هو نتاج تلك البيئة، وتزرع فيه روح العدوان والميل لسلب ما يملكه أهل الحضارة والعمران. ولذا فإن الفكر البدوي لا يصلح لقيام العمران وتشييد الحضارات، وأن غزوات الوهابيين على المراكز الحضرية في وادي الرافدين والجرائم التي اقترفوها بحق الإنسان، جاءت دليلاً على أن الوهابيين لم يكونوا يحملون مشروعاً للإصلاح، بل كانوا طلائع موجة بدوية قذفت بها الصحراء، فنشرت الخراب في مراكز الحضارة، وهذا ما أحدثوه في كربلاء.

لقد أقترب المؤرخ كيلي من هذه الحقيقة حينما أشار إلى العوامل التي حالت دون انتشار المفاهيم الوهابية خارج بيئتها البدوية بالرغم من أنها بدأت كحركة إصلاحية إذ قال:

"... إنّ التوسع الوهابي يعتبر ظاهرة من الظواهر التي يتكرر وقوعها بين شعوب المناطق البدائية وعلى الأخص بين البدو... . إن الوهابية التي بدأت كحركة إصلاحية دينية اكتسبت بعض الوقت طابعاً سياسياً وعلمانياً، حتى غدت في ذروة قوتها أشبه بموجة زحف بربري تمليه غريزة السلب والنهب وتعززه الرغبة في العنف والتدمير، أي كطاقة روحية، فإن الوهابية لم تجد لها صدى خارج موطنها في قلب الجزيرة العربية وإذا كان لكل جانب دنيوي، إلا أن هذا الجانب للحركة الوهابية قد ترك بصمات مؤلمة ودامية لا تزال آثارها متماثلة في الأذهان حتى اليوم."(2)

محاولة اجتياح النجف الأشرف

بعد مذبحة كربلاء سار الوهابيون نحو مدينة النجف لاجتياحها انتقاما لمعركة الخزاعل التي حدثت في سنة 1799م. كان سور مدينة النجف في تلك الأيام منخفضاً ولذا ظنَّ الوهابيون بأنهم سيتمكنون من

---

(1) مقدمة ابن خلدون الفصل السادس والعشرون ص 149

(2) جون ب كيلي – بريطانيا والخليج، ج1 ص77

اقتحامه واجتياح المدينة ولكن أهل النجف كانوا قد استعدوا لمواجهة العدو، إذ توزع الرجال بما فيهم طلاب العلوم الدينية إلى جماعات انتشروا في مختلف الجهات وباشروا يقاتلون المهاجمين وكان القتال مريراً، انتهى باندحار الوهابيين وانسحابهم من أسوار المدنية والعودة إلى نجد. وبالرغم من إنهم فشلوا في سرقة خزائن النجف فإنهم كانوا محملين بما نهبوه من خزائن كربلاء. وبهذا الصدد قال عنهم لونكريك:

"... وهكذا رجع وحوش نجد الكواسر إلى موطنهم ثقالاً على إبلهم التي حُمّلت تحميلاً ثقيلاً نفائس لا تُثّمن."(1)

للإطلاع على تفاصيل ومعلومات أوسع عن الغارات الوهابية، وأعمال السلب والنهب والجرائم التي اقترفوها ضد السكان الآمنين داخل الأراضي العراقية، يمكن للمهتمين بهذا الموضوع مراجعة ج4 من الكتاب.

وفاة سليمان باشا الكبير

كان الباشا العجوز في تلك الأيام طريح الفراش، يعاني من مرض المفاصل الذي لازمه أكثر من شهرين، ويقال إن قواه تدهورت بعد مذبحة كربلاء إذ توفى في 9 آب (أغسطس) من سنة 1802م، بعد أن حكم ببغداد أكثر من 22 سنة. وقد تولى بعده صهره الأكبر الكتخدا علي باشا.

خلف سليمان باشا الكبير ثلاثة أولاد صغار هم سعيد وصالح وصادق، وأربعة أصهار جميعهم ضباط من العنصر الكرجي، هم علي باشا الكهية، وسليم آغا، وداود آغا، وناصيف آغا، ولما كان أولئك الأصهار يمسكون بأخطر المراكز الحكومية فإنهم كانوا يعدون أعمدة الحكم الكرجي العسكري في ذلك العهد.

جمع الباشا الكبير قبيل وفاته أصهاره الأربعة وأحضر معهم رئيس العبيد الشيخ محمد الشاوي الذي كان يتولى منصب "باب العرب" وأوصاهم بالتكاتف فيما بينهم وحذرهم من مغبة التنازع والاختلاف وكانت وصيته لهم أن يتولى حكومة الكرج بعده صهره الكبير علي باشا الكهية، وأكد عليهم أن يؤازروه لكي لا يخرج الحكم من أيديهم.

قال العزاوي:

... وهذا الوزير من حين ولى بغداد مكّن السلطة وحصرها بالمماليك،... وكان لأدنى سبب أو

---

(1) ستيفن هيمسلي لونكريك. أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ص262

لمجرد تمكين السلطة للمماليك يسفك الدماء... وكان من أهم ما ركن إليه نهب العشائر والإمارات وسلبها ... وأعماله الخيرية كانت من أموال السلب... والعراق لم ير سلطة قاهرة مثل هذه."[1]

وكان من أهم أعماله: ... في حقل التعليم فقد بنى المدرسة (السليمانية) التي كان التعليم فيها مقتصراً على أبناء المماليك الكرج والعاملين في دوائر الحكومة، ولم يكن مسموحاً لأولاد العرب دخول مثل هذه المدارس.

---

(1) تاريخ العراق بين احتلالين – عباس العزاوي ج6 . ص149/147

حكومات الكرج بعد سليمان الكبير

وزارة علي باشا

بعد وفاة سليمان الكبير نودي بولاية علي باشا الذي تسلم زمام الحكم باعتباره قائمقام، ريثما يصل الفرمان المعتاد من اسطنبول. في تلك الأثناء طفت على السطح الانقسامات العائلية التي حذر منها الباشا الكبير، فقد ظهر أن سليم بك الداماد صهر الباشا الكبير كان قد تأمر مع رئيس الإنكشارية أحمد أغا لأحداث انقلاب عسكري ضد علي باشا. يقول رسول الكركوكلي : وقد تمكنا فعلاً من جمع زمرة من المنافقين والمشاغبين واحتلا القلعة وقطعا الجسور، وأعلناها ثورة مسلحة، وسلطا المدافع على السراي، وانتشرت الفوضى والمظاهرات ..."[1]، وتحولت بغداد إلى ساحة حرب، شملت حتى جانب الكرخ، بعد أن قاد رئيس العبيد محمد بك الشاوي جماعات مسلحة وانظم إلى جانب علي باشا، وبعد قتال شديد وسلسلة من المؤامرات التي أجراها علي باشا والتي بذل أثناءها أموالاً طائلة لإضعاف موقف رئيس الإنكشارية الذي اضطر في النهاية الهروب من القلعة. وتشير الأخبار أن الشيعة جاهروا في هذه المرة بعدائهم الشديد لعلي باشا وساندوا أعداءه، لأنهم كانوا يتهمونه بأنه تباطأ عن عمد في نجدة كربلاء، وأنه سمح بذلك للوهابيين اجتياح المدينة المقدسة، وبعد انتصاره نظم علي باشا مذبحة واسعة ضد عرب العراق الشيعة في بغداد وصادر أموال أغنيائهم، ويبدو أن علي باشا أسبغ في هذه المرة على تلك المذابح طابعاً طائفياً ضد الشيعة.

من الغريب أن علي باشا بعد أن سيطر على بغداد والنواحي، التفت إلى حلفائه رؤساء العبيد وأمر بقتل الأخوين محمد وعبد العزيز الشاوي، بعد أن اتهمهم بالتآمر مع رئيس الإنكشارية أحمد آغا الذي ساعده رؤساء العبيد في القضاء على حركته. بعد أن قتل علي باشا رؤساء العبيد جهز حملة عسكرية كبيرة ضد عشائر العبيد في الخابور، وكان جاسم الشاوي أكبر أبناء محمد الشاوي قد فر إلى هناك، وقد استعان علي باشا بوالي الرقة في تلك الحملة، ولكن رجال العبيد تصدوا لتلك الحملة العسكرية واشتبكوا مع رجالها بمعركة حامية وأنزلوا بهم هزيمة منكرة.

---

(1) رسول الكركوكلي– دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء، ص219

الغزوات الوهابية بالحجاز

بعد مذبحة كربلاء اتجهت أنظار عبد العزيز آل سعود نحو الحجاز، وفي نيسان سنة 1803م تمكنت الجيوش الوهابية بقيادة سعود من دخول مكة المكرمة، وبعد سنة من ذلك استولى الوهابيون على المدنية المنورة، وتشير الأخبار أن الوهابيين نهبوا التحف التي كانت في المسجد النبوي من هدايا ملوك الهند وحكام مصر وسلاطين السلاجقة والعثمانيين، وقيل إن سعود باع ما نهبه من المسجد النبوي في أسواق الهند.

في مكة أمر الأمير سعود بإعدام القاضي الشيخ منيب أفندي ومعه عشرون من المشايخ، لأنهم رفضوا الالتزام بالتعاليم الوهابية، بعد ذلك استخلص سعود بيانات من شريف مكة وباقي مشايخها، تنص على الاعتراف بالعقيدة الوهابية باعتبارها دين الإسلام الجديد والتبرؤ من دينهم السابق باعتبار أنه الشرك. وعليه أصدر علماء مكة البيان التالي:

"نحن علماء مكة الواضعون في هذا الرقيم: أن هذا الدين الذي قام به الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، ودعا إليه إمام المسلمين سعود بن عبد العزيز، من توحيد الله ونفي الشرك الذي ذكره في هذا الكتاب، أنه الحق الذي لا شك فيه. ولا ريب، وأن ما وقع في مكة والمدنية سابقاً ومصر والشام وغيرهما من البلدان إلى الآن من أنواع الشرك المذكورة في هذا الكتاب أنه: الكفر المبيح للدم والمال، والموجب للخلود بالنار، ومن لا يدخل في هذا الدين ويعمل به، ويوالي أهله ويعادي أعداءه، فهو عندنا كافر بالله واليوم الآخر، وواجب على إمام المسلمين والمسلمين جهاده وقتاله حتى يتوب إلى الله مما هو عليه، ويعمل بهذا الدين...

شهد على ذلك البيان عدد من علماء مكة، منهم مفتي الحنفية، ومفتي الشافعية، ومفتي المالكية، ومفتي الحنابلة، وغيرهم..."[1]

اغتيال عبد العزيز آل سعود

في سنة 1803م هجم رجل على الأمير عبد العزيز أثناء تأديته الصلاة وطعنه طعنة قاتلة، ويقال إن قاتله رجل أفغاني يدعى ملا عثمان ذهب إلى الدرعية بزي درويش والتحق بخدمة الأمير السعودي وهو ينوي قتله.

بعد اغتيال عبد العزيز تولى الحكم بالدرعية ابنه سعود، ومن المعروف أن سعود كان حاكماً شديداً

(1) أحمد الكاتب – جذور الاستبداد في الفكر السياسي الوهابي، الفصل الثالث

كوالده عبد العزيز، ولكنه لم يرث من والده الكثير من مؤهلاته، كالحنكة السياسية والبساطة والتقشف في أمور الحياة، ولذا تغيرت في عهده مسيرة الدولة الوهابية ولم يكن قد مضى على تأسيسها سوى نصف قرن.

الدرعية بين البذخ والاستبداد

بعد تولي الأمير سعود، شهدت الدولة الوهابية فيه حاكماً مستبداً يميل إلى البذخ والتنعم بحياة القصور الوارفة بصورة لم تعرفها حياة البداوة بنجد. تشير الأخبار أن أعمال السلب والنهب التي مارسها الوهابيون في مختلف البلدان الإسلامية، وما نقلوه من كنوز سرقوها من الحرمين الشريفين في مكة والمدينة ومن ضريح الأمام الحسين في كربلاء وعبر غزواتهم الكثيرة، غيرت وجه عاصمتهم الدرعية التي تكدست فيها تلك الأموال المنهوبة.

هجوم الوهابيين على النجف

في سنة 1806م جاءت الأنباء بأن الوهابيين يتحركون لمهاجمة النجف فانبرى السكان للدفاع عن مدينتهم المقدسة بقيادة الشيخ جعفر المالكي الذي اشتهر بلقب "صاحب كشف الغطاء"، وكان زعيم الحوزة الدينية آنذاك. كان أول عمل قام به سكان النجف أنهم نقلوا خزانة الحضرة العلوية إلى بغداد، وأودعوها في خزانة الحضرة الكاظمية.

الشيخ جعفر كاشف الغطاء

هو الشيخ جعفر بن الشيخ خضر بن محمد يحيى بن مطر بن سيف الدين المالكي، أبو الأسرة العلمية آل كاشف الغطاء. نزح والده إلى النجف من قرية جناجية (قناقية) من قرى فرات الحلة، وذلك لطلب العلم. يطلق أسم بني مالك في الفرات الأوسط على عدد كبير من العشائر، منهم آل علي والعوابد والحميدات وبني حسن وبني زيريج، وهم غير بني مالك المنتفك.

ولد الشيخ جعفر بالنجف، في حدود سنة 1743م ودرس علوم الدين على والده الشيخ خضر وعلماء آخرين منهم الشيخ محمد مهدي الفتوني العاملي (نسبة إلى جبل عامل في جنوب لبنان)، والسيد صادق الفحام والشيخ محمد تقي الدورقي (نسبة إلى الدورق في جنوب العراق) والسيد بحر العلوم، أما من يَروي عنه وتخرج عليه من الفقهاء، منهم الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر، والسيد صدر الدين العاملي، والسيد عبد الله شبر، والشيخ أحمد الأحسائي، والسيد محسن الأعرجي وعلماء آخرون، ومن أبنائه الشيخ موسى والشيخ علي.

عاش الشيخ جعفر حياته بالنجف في عهد المماليك الكرج، وتوفى في سنة 1816م، وهي السنة التي تولى فيها سعيد باشا الحكم ببغداد، وبذلك يكون قد عاش تلك الفترة الدموية المضطربة من تاريخ

العراق، وشهد حكام المماليك الكرج الذين أوغلوا بالفساد والرذيلة وجروا البلاد إلى هاوية الجهل والفقر والمرض، وقد قدر لهذا الشيخ الجليل أن يكون أحد أبناء الرافدين الذين أصروا على سلوك طريق العلم والمعرفة في تلك الظروف العسيرة وأخذوا على عاتقهم مسؤولية الدفاع عن حقوق الناس والوقوف إلى جانبهم بالسراء والضراء، وكانت ملحمة الدفاع عن مدينة النجف المقدسة ضد الغزاة الوهابيين، صفحة من سجل ذلك المجاهد الذي كرس حياته لخدمة الناس.

سور النجف

يعد السور الذي جرت عليه معارك سنة 1806م ضد الغزاة الوهابيين السور السادس، والذي كان في تلك الأيام في طور التشييد. فمن المعروف أن الأسوار الأربعة الأولى شُيّدت في العهد العباسي.

شَيّد السور الأول محمد بن زيد الداعي، بعد أن عمر قبة المرقد العلوي. أما السور الثاني فقد عمره أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان الذي يعده بعض المؤرخين مؤسس الدولة الحمدانية بالموصل، والسور الثالث شيده عضد الدولة بعد أن وسّع البلد، أما السور الرابع فقد بناه عميد الجيوش أبو محمد بن سهلان، وقد ذكر ذلك ابن الأثير في كتاب الكامل للتاريخ في أحداث سنة 400هـ، أما السور الخامس فقد بني في عهد السلطان المغولي ويس الجلايري، ويبدو أن هذا السور دام سنين طويلة بدون تعمير.

بعد أن توسع العدوان الوهابي على العراق وبانت أبعاده خاصة بعد اجتياح مدينة كربلاء المقدسة، تحرك رجال العراق وعلى رأسهم علماء النجف، وشمروا عن ساعد الجد للعمل في حماية النجف من عدوان مماثل، وهكذا أعطيت الأولوية لمشروع تشييد سور جديد لحماية المدينة المقدسة. تحرك علماء النجف وأجروا اتصالات واسعة داخل وخارج العراق لشحذ همم أهل الخير للتبرع والمساهمة في تعمير السور القديم لحماية المدينة المقدسة، فتقدم لإنجاز بناء السور وزير فتح علي شاه القاجاري الحاج محمد حسين خان العلاف وقد استغرق بناء السور تسع سنوات من سنة 1802م حتى سنة 1811م.

يبدو أن أعمال البناء لم تكن قد اكتملت، ولكنها كانت قد بلغت مرحلة متقدمة ساعدت المقاتلين في الدفاع عن المدينة المقدسة وإلحاق الهزيمة بالوهابيين. تشير الأخبار أن هجوم الوهابيين على النجف حدث قبل بزوغ فجر يوم 28 .4 .1806م، ولكنهم واجهوا مقاومة شديدة انتهت بهزيمتهم. يبدو أن الأمير السعودي لم يتوقع تلك المقاومة الشديدة فقرر الانسحاب من السور على أن يعاود الهجوم بعد شروق الشمس، ولكن معسكره تعرض إلى هجوم مباغت من قبل عشائر الفرات الأوسط التي أنزلت بالمقاتلين الوهابيين خسائر فادحة، وهكذا خسر الأمير السعودي المعركة بصورة كاملة. أثناء انسحابهم هاجم الوهابيون مدينة السماوة، ولكنهم واجهوا هزيمة مماثلة، وقبل انسحابهم عمدوا إلى تدمير القرى والمزارع المحيطة بالبلدة.

يبدو أن هزائم أمير الوهابيين عبد الله بن سعود المتتالية سببت له شعوراً عميقاً بالإهانة، فقرر

مهاجمة بلدة الزبير عله يحقق نصراً ما بعد تلك الهزائم، ولكن أهل الزبير صمدوا بوجه الوهابيين وأنزلوا بهم هزيمة أخرى، ومن الجدير بالملاحظة أن تلك كانت المرة الثالثة التي يهاجم فيها الوهابيون بلدة الزبير. بعد تلك الهزائم عاد الغزاة الوهابيون إلى ديارهم خالي الوفاض، وهكذا كانت نهاية تلك الحملة الوهابية، التي رافقتها الهزائم في جميع مراحلها.

عرب العراق بين الكرج والوهابيين

بينما كان الوهابيون يشنون غارات السلب والنهب داخل الأراضي العراقية، ويقتلون السكان الآمنيين، كانت حكومة الكرج في بغداد تشيح بوجهها عن تلك الاعتداءات بحق الشعب العراقي، وتتجاهل حتى نداءات حكومة السلطان العثماني، للوقوف بوجه ذلك العدوان الوهابي.

حينما تعرض العراق إلى غزوات الوهابيين كان المتوقع من حكومة الكرج القابعة ببغداد أن تتصدى لذلك العدوان بكل قواها، ولكن ذلك لم يحدث، لا في عهد سليمان باشا الكبير ولا في عهد خليفته علي باشا.

ذَكَرت الأخبار انه بينما كان رجال النجف وعلى رأسهم الشيخ جعفر كاشف الغطاء يعززون دفاعات مدينتهم ويستغيثون في طلب النجدة، زحف علي باشا بجيش المماليك الكرج واستقر بالحلة مدعياً أنه بصدد محاربة الوهابيين. ولكن سير الأحداث كشف أن استعدادات علي باشا لم تكن لمواجهة العدوان الوهابي، ولا لإغاثة أهل النجف ومدينتهم المقدسة، بل لمهاجمة العشائر العراقية من أجل أعمال السلب والنهب، وكأن علي باشا كان يتنافس مع الغزاة الوهابيين على قتل العراقيين وسلب أموالهم. من هناك هاجمت قوات علي باشا بني لام وسلبت منهم أكثر من سبعمائة جاموسة وأعداد من البقر والضأن، ثم هجم على عدد من العشائر خلف شواطئ دجلة ونكل بهم وغنم منهم حوالي الأثنى عشر ألف رأس من الضأن والماعز ثم سارت تلك القوات نحو جصان ومنها إلى بغداد.

الكرج في دوامة الدم

في صيف سنة 1807م قُتل علي باشا، وكان قاتلوه جماعة من الكرج. بعد مقتل علي باشا التجأ القتلة إلى دار سعيد بك بن سليمان الكبير ولكن سعيد بك طردهم وأغلق الباب في وجوههم، فاتجهوا نحو دار نصيف آغا الذي كان طامعاً بالمنصب ومن هناك اتجهوا إلى دار النقيب السيد رمضان الكيلاني للاحتماء بها، ولكن سليمان باشا الكهية الذي كان قد تولى الأمر، وهو ابن أخت علي باشا، أمر بقصف دار النقيب بالمدافع، فتفرق القتلة وهرب نصيف آغا إلى جانب الكرخ. في تلك الأثناء تم جمع الأعيان والعلماء الذين بايعوا الكهية سليمان باشا وأجلسوه بالسراي مكان خاله علي باشا.

سليمان باشا الصغير

تولى سليمان باشا منصب ولاية بغداد وهو في الثانية والعشرين من العمر، ولذا عرف بـ"سليمان الصغير" لتفادي الالتباس في الأسماء مع سليمان باشا الكبير. بعد أن بايعه أمراء المماليك الكرج وأعيان بغداد وعلماؤها، أرسلوا كما كان متبعاً ومفروضاً في حكم المماليك الكرج، عريضة إلى اسطنبول يسترحمون بها إصدار الفرمان اللازم بتوجه الولاية إلى سليمان باشا. ومن المعروف أن رجال السراي باسطنبول كانوا بصدد التخلص من حكم الكرج، وأن السلطان وجهة آيالة بغداد إلى يوسف ضياء باشا الصدر السابق، وهذا بعث فيض الله أفندي إلى بغداد متسلماً عنه. ولكن سليمان باشا تحدى أمر السلطان، وقبض على فيض الله في كركوك ومنعه من القدوم إلى بغداد. في تلك الأثناء وصلت أموال طائلة من بغداد إلى اسطنبول، لدعم طلب سليمان باشا.

أمام ذلك التحدي العسكري، وبعد وصول العريضة، غيرت اسطنبول موقفها، إذ وصلت مع العريضة أموال طائلة أرسلها سليمان باشا لدعم طلبه في الحصول على المنصب، ويروى أن سليمان باشا تعهد لحكومة السلطان دفع خمسة آلاف كيس عن مخلفات سليمان الكبير، وخمسة آلاف كيس أخرى عن مخلفات علي باشا، ولابد أن ذلك الذهب الرنان لعب دوراً حاسماً في تغير موقف حكومة السلطان. لكن يبدو أن عوامل أخرى ساهمت كذلك في دعم طلب المماليك الكرج، إذ يقول الوردي نقلاً عن ساطع الحصري" إن سفير فرنسا في اسطنبول تدخل وقدم مذكرة إلى السلطان قال فيها: "إن أحوال بغداد في حالة الاختلال وقوة سليمان باشا في غاية الكمال، فيكون من مصلحة الدولة توجيه الولاية إليه ..."(1)

---

(1) علي الوردي. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج1ص209

كان سليمان الصغير شاباً مغروراً قليل التجربة في الحياة، عاش في أكناف خاله علي باشا الذي رفعه إلى أعلى المناصب وهو في سن الشباب، وقد انتفخ غروراً بعد تسنّمه كرسي الوزارة وشمخ بأنفه وتملكه الإعجاب بنفسه، ولذلك اتهمه الناس بالاعوجاج والانحراف، وذهب بعضهم إلى حد اتهامه بميله للمذهب الوهابي، ولذلك أخذت علاقة سليمان الصغير باسطنبول تسوء يوماً بعد يوم.

مع توسع حملة الدولة ضد سليمان الصغير تكاثر أعداءه وأخذت جميع الأطراف تتحين الفرصة لعزله من ولاية بغداد، ومما فاقم الوضع إدعاء الحكومة أن سليمان الصغير امتنع عن إرسال ما بذمته من أموال للدولة، وكان ذلك كافياً للتحرك لإسقاطه، وقد أوكلت الدولة تلك المهمة إلى رجل عُرف بمكره وإتقانه حبك الدسائس والمؤامرات، يدعى حالت أفندي آل رئيس الكتاب.

بعد أن وصل حالت أفندي إلى بغداد أخذ يتعامل مع سليمان الصغير بطريقة أصولية، فخيره بين دفع جميع المبالغ المطلوبة أو التخلي عن الولاية، ولكن يبدو أن غرور سليمان الصغير، واعتداده بنفسه وبجيشه الكرجي القوي، جعله يتعالى ويتجاهل طلبات مبعوث اسطنبول، وعليه قرر حالت أفندي الذهاب إلى الموصل ليعمل من هناك على إسقاط حكومة سليمان الصغير.

بعد أن استقر حالت أفندي بالموصل كتب تقريراً إلى اسطنبول حول تصرفات الوالي، فجاءه بعد مدة الفرمان بعزل سليمان الصغير. في تلك الأثناء بدأت أعمال الشغب والعصيان ضد سليمان الصغير، فقد انتهز متسلم البصرة الفرصة وأعلن العصيان ضد الوالي، وفي بغداد تحرك أحد أغوات الإنكشارية المدعو عبد الرحمن أغا الموصلي . وهو جد العائلة البغدادية المعروفة آل الأورفلي . وأخذ يحرض ضد سليمان الصغير ثم قاد قوة من الإنكشارية وتمكن من احتلال القلعة وقتل رئيس الإنكشارية فيها. وتواصلت بعد ذلك الفتن والاضطرابات والتي أدت إلى هروب سليمان الصغير من بغداد. قال العزاوي: "... ومضى لجهة ديالى وغرضه الذهاب إلى شيخ المنتفق حمود فعبر إلى الجانب الشرقي ووصل إلى عشيرة الدفافعة (من شمر)، ولكن الدفافعة قتلوا الوزير وقطعوا رأسه وجاءوا به إلى عبد الرحمن باشا.[1]

غارات الوهابيين في الفرات الأوسط

في تلك الحقبة المضطربة، ظهرت القبائل النجدية في منطقة الفرات الأوسط وأخذت تتعرض لزوار العتبات المقدسة، وتقطع الطرق، وتقتل الناس وتنهب الأموال.

من المعروف أن وفاة حمد آل حمود في سنة 1799م تركت فراغاً كبيراً في قيادة الخزاعل وعشائر

---

(1) عباس العزاوي . تاريخ العراق بين احتلالين، ج6ص200

الفرات الأوسط التي دخلت في منازعات فيما بينها، وبعد مرور عقد من الزمن بدت مظاهر الضعف والانقسامات تظهر في المنطقة، وكان موقف الخزاعل وعشائر الفرات الأوسط الضعيف من اعتداءات الوهابيين في تلك الأيام وعجزهم في نجدة المدن المقدسة دليل على ذلك، وقد أشار صاحب كتاب مفتاح الكرمة إلى محنة سكان النجف في تلك الأحداث فقال:

"... ونحن الآن كأنا في حصار، والأعراب إلى الآن ما انصرفوا وهم من الكوفة إلى مشهد الحسين (ع) بفرسخين أو أكثر على ما قيل، والخزاعل متخاذلون مختلفون كما أن آل بعيج وآل جشعم يتقاتلون، كما أن والي بغداد جاءه وال آخر وأنه معزول وهما الآن يتقاتلان، وقد عَمت علينا أخبارهما لانقطاع الطرق وبذلك طمعت (عنيزة) في الإقامة في هذه الأطراف ولا قوة إلا بالله."[1]

بعد مقتل سليمان الصغير تولى الوالي عبد الله باشا الذي كان من مماليك سليمان الكبير اشتراه حينما كان متسلم البصرة، وقد هرب أيام سليمان الصغير إلى السليمانية وأقام عند عبد الرحمن باشا بابان، ولما جاء حالت أفندي بهدف عزل سليمان الصغير أخذه إلى بغداد ونصبه قائمقام، وبعد القضاء على سليمان الصغير أختاره حالت أفندي للمنصب.

لم يمضِ على ذلك سوى فترة قصيرة حتى نشبت ببغداد اضطرابات جديدة حركها عبد الرحمن الموصلي الذي كان يرغب في تنصيب سعيد بن سليمان الكبير الذي لم يكن قد بلغ العشرين من عمره. وبعد مؤامرات وصراعات دموية قتل عبد الله باشا وتم تنصيب سعيد بن سليمان الكبير في مكانه

حملة سعيد باشا على الفرات الأوسط

في خضم تلك الأوضاع المتردية جهز سعيد باشا حملة عسكرية ضد الخزاعل، وكما كانت عادة حكام الكرج جرى توقيت الحملة في موسم الحصاد وجمع وتخزين الحاصلات، وذلك لنهب ما أنتجته تلك المناطق ونقله إلى بغداد. في أوائل كانون الأول (ديسمبر) 1813م، سار سعيد باشا نحو الخزاعل فوصل الحلة، ولكن الجيش لم يتمكن من التقدم والاشتباك مع رجال الخزاعل بسبب نقص المعدات وسوء الإدارة وتفكك القوات المسلحة، وخوفاً من الهزيمة أو الاعتراف بالعجز والخذلان بقى الوزير حائراً بالحلة، ولكن الكتخدا وأمراء المماليك حاولوا التستر على ذلك الخذلان والخروج من ذلك المأزق بما يحفظ للحكام ماء الوجه، فبادروا بمراسلة شيخ الخزاعل وعرضوا عليه دفع شيءً من الميري الذي كانت تفرضه الحكومة على العشائر، ولكنهم لم يحصلوا منه سوى "تعهد" فاكتفى الوزير بذلك وقفل راجعاً إلى بغداد.

---

(1) الشيخ جعفر محبوبة. ماضي النجف وحاضرها، ج1ص327-328

كان لخذلان سعيد باشا وفشله في مهاجمة الخزاعل وعودته إلى بغداد خالي الوفاض، أسوء الأثر بسمعته وسمعة حكومة الكرج السياسية والعسكرية، مما شجع العشائر العراقية التي كانت تعاني من انتشار الفساد الإداري وغياب العدالة، على التمرد والعصيان، ففي منطقة الفرات الأوسط تحركت عشائر الخزاعل وزبيد على الحكومة، فقطعت الطرق وتعرضت للقوافل السائرة بين النجف والحلة وكربلاء، وسرعان ما انتشر التمرد بسبب عدم تدخل الحكومة فشمل عشائر أخرى كشمر الجربة والظفير وسادت الفوضى واتسعت عمليات السلب والنهب حتى وصلت مشارف الكاظمية وأخذ رجال العشائر يقطعون سبيل زوار العتبات المقدسة ويسلبوا أموالهم.

ومن غريب الاتفاق مجيء ما يقرب من الأربعين ألف زائر من الديار الإيرانية في تلك الظروف المحفوفة بالمخاطر لزيارة العتبات المقدسة، وتحرش الثوار بهم مما اضطرهم للتكتل والمكوث في العتبات المقدسة في شبه حصار ... وكان بين هؤلاء الزوار حرم حاكم إيران وعياله مع جماعة من رؤساء الحكومة الإيرانية. بعد تدخل الحكومة الإيرانية واتصالاتها المباشرة بالوزير لحماية الزوار وتأمين عودتهم إلى ديارهم، تحرك الوزير وقرر بعد التداول مع رجال الحكومة، أن يعهد بمعالجة تلك الأوضاع الخطيرة بزوج أخته داود أفندي، فأصدر أمراً بتعيينه قائداً على حملة عسكرية كبيرة سارت نحو الحلة، وبعد أن استقر داود بالحلة أرسل عدداً من الوحدات العسكرية إلى كربلاء لحراستهم أثناء ذهابهم إلى النجف ومن ثم العودة بهم إلى الحلة ومنها إلى الكاظمية في طريق عودتهم إلى إيران.

لإبداء السطوة أصدر داود أمراً بعزل شيخ زبيد، وعين مكانه شاف الله الشلال المعروف باسم "شفلح"، ثم أغار على عشائر جبور الواوي، وبعد معارك حامية تمكن من الانتصار عليهم ونهب أموالهم ومواشيهم وسائر ممتلكاتهم التي نقلت إلى بغداد، ثم عسكر داود قبالة الديوانية في محاولة جمع ما يمكن جمعه من أموال وغلال من الخزاعل الذين لم يذعنوا لسلطة بغداد منذ أيام علي باشا، ولما جاءهم داود أقبل عليه أكبر شيوخ الخزاعل محسن الغانم وتعهد بدفع الميري، ويقول صاحب الدوحة أنهم دفعوا قسطاً منها ...[1]

سعيد باشا و حمّادي أبو عقلين

تشير الأخبار أن سعيد باشا كان يقيم علاقة مشبوهة مع شاب جميل المحيا من أهل بغداد يدعى "حمّادي العلوجي"، والذي اشتهر بلقب "ابن أبو عقلين"، ومن المرجح أن تلك العلاقة لم تكن وليدة الساعة،

---

(1) رسول الكركوكلي– دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء، ص265

ولكن يبدو أن أمرها افتضح وأخذ أبعاداً جديدة بعد تولي سعيد باشا وزارة بغداد، وأن جميع المحاولات فشلت لإنهاء تلك العلاقة المشبوهة، لأن عشق سعيد باشا وهيامه بحمّادي العلوجي، ملك عليه حواسه وأنساه واجباته ومسؤولياته في إدارة البلاد، حتى ضج الناس وعادت مجالس بغداد تتحدث عن تفسخ المماليك الكرج وشذوذهم الجنسي. يقول سليمان فائق وهو من الكرج:

"...أما محبته لحمادي أغا تلك المحبة التي بلغت العشق والهيام والتي أصبحت حديث الخاص والعام، بالإضافة إلى ما كان يتمتع به الموما إليه من حسن وجمال فإن كل ذلك حمل الناس على اتهامه بالانحراف الجنسي."(1)

في خصم ذلك الوضع المتردي تسلط حمادي أبو عقلين الذي قال عنه بعض كتاب تلك الفترة: "... لم يكن عاقلاً ولا نصف عاقل فضلاً عن أنه يكون أبا عقلين."(2) تسلط حمادي على سعيد باشا الحاكم العابث الضعيف، الذي سقط في هاوية الرذيلة، وأصبح تابعاً لعشيقه حمادي، الذي صار يأمر وينهى ويتصرف بالأمور كما يشاء. وهكذا عمت الفوضى وانهارت أركان النظام. قال صاحب الدوحة: "...وكلما نُبه الوزير إلى ضرورة معالجة الأوضاع وعرضت عليه ما وصلت إليه الحالة أعرض عن الناصحين، واستمر سادراً في طيشه وإهماله وسوء أعماله، إلى أن عمت الفوضى سائر الأرجاء ... واتسعت الفتنة وانتشرت الثورات في أرجاء البلاد، وسارت الأحوال من سيئ إلى أسوأ مدة ثلاث سنوات."(3)

زعيم الكرج الجديد

مع تردّي الأوضاع، انتشر التذمر في صفوف المماليك الكرج الذين باتوا يخافون انهيار حكومة الكرج والقضاء عليهم جميعاً، فالكل يعلم أن حكومة السلطان لم تفقد الأمل ولم تكفّ عن السعي لاستعادة بلاد الرافدين التي كانت خزينة السلطان بأمسّ الحاجة إلى ثرواتها العميمة، وأن تصرفات سعيد باشا التي زادت من عزلة الكرج وأضعفت مركزهم، ستسّهل عمل أعدائهم وتسمح لعملاء حكومة السلطان للتحرك لإسقاط حكمهم.

---

(1) سليمان فائق بك – تاريخ المماليك "الكولمند" ببغداد، ص57 وكذلك علي الوردي . لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ،ج1ص223

(2) عباس العزاوي . تاريخ العراق بين احتلالين، ج6ص229

(3) رسول الكركوكلي– دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء، ص269

للخروج من تلك المحنة الخطيرة، أخذت الجماعات الكرجية تلتف حول داود أغا الذي أصبح أمل الكرج في إنقاذ ما تبقى من حكمهم، وإبعاد شبح السقوط الذي بات يهدد وجودهم على أرض الرافدين. في أيلول سنة 1816م تمكن داود أغا مغادرة بغداد مع نحو مائتين من الكرج وذهب إلى كركوك، وهناك لقي ترحيباً من محمود باشا بابان الذي كان يكن عداءً شديداً لسعيد باشا ولحمادي أبو عقلين الذي سعى في عزله من منصب حاكمية بابان وحرير وكوي، ومن هناك ذهب داود أغا إلى السليمانية، وفي تلك الأثناء توافدت عليه جماعات أخرى من الكرج وغيرهم من المناوئين لسعيد باشا وكان الجميع يحثونه على طلب الولاية له قبل فوات الأوان.

بعد مؤامرات ومناورات عديدة تمكن داود أن يحصل على فرمان سلطاني بعزل سعيد باشا وتعيين داود أغا والياً على بغداد والبصرة وشهرزور مع رتبة وزير. استلم داود الفرمان في محرم 1231هـ (نوفمبر 1816م)، وبعد استلامه الفرمان سار نحو بغداد بدأ بشن حملة واسعة ضد سعيد باشا وأرسل نسخاً من الفرمان إلى بغداد لإثبات عزل سعيد باشا.

عصيان سعيد باشا ومقتله

في بداية الأمر خارت عزيمة سعيد باشا وآثر الهروب من بغداد، ولكن حمادي العلوجي حثه على الصمود والتحدي، فانصاع له وقرر البقاء ومقاومة قوات داود باشا، وهكذا بدأت الاستعدادات للمقاومة وأغلقت أبواب بغداد.

في تلك الأثناء استنجد سعيد باشا بحليفه حمود الثامر رئيس المنتفك، فجاءه إلى بغداد على رأس ألف وخمسمائة من فرسان المنتفك نزلوا في جانب الكرخ، وجاءه من كركوك عبد الله باشا على رأس خمسمائة فارس نزلوا خارج باب الأمام الأعظم، وكان على سعيد باشا أن يصرف على تلك القوات أموالاً طائلة، بالرغم من الأزمة المالية التي كانت تواجهها الخزينة، مما اضطره إلى فرض ضرائب جديدة على التجار وهذا أشعل روح العداء ضده. في كانون الثاني (يناير) سنة 1817م تقدمت فرق من جيش داود باشا نحو باب المعظم، وأصبحت في مرمى مدافع القلعة، وعلى حين غرة هاجمها خمسمائة فارس من فرسان المنتفك تساعدهم مدافع القلعة، وفي ذلك الهجوم المباغت تمكن فرسان المنتفك من دحر طلائع جيش داود باشا الذي تراجع إلى الوراء، ويقال إن داود باشا كاد أن يهلك في تلك المعركة(1). ولكن داود باشا أعاد تنظيم قواته التي كانت تتعزز وتنمو بانضمام قوات جديدة إليها ومنها قوات كرجية وعثمانية

---

(1) ستيفن هيمسلي لونكريك. أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص285

أخذت تسلل تدريجياً من بغداد وتنضم أليه. في تلك الأثناء انقطعت عن بغداد المؤن وارتفعت الأسعار، ولاحت بوادر المجاعة، مما سهل على أنصار داود باشا إطلاق الإشاعات وبث الأراجيف وتحريض الناس على الثورة.

مع اشتداد أزمة الطعام خرجت من محلة باب الشيخ مظاهرات صاخبة تتقدمها الدفوف والأعلام ارتفعت فيها هتافات الجماهير التي كانت تستغيث من ارتفاع الأسعار، ثم تحول المتظاهرون إلى العنف فانتشر الشغب وكثرت أعمال السلب والنهب، وسيطر الأشقياء ورؤساء العصابات ورجال العشائر على مفترق الطرق والحارات وزاد إطلاق النار مما اضطر سعيد باشا للاحتماء بالقلعة واستمرت الفوضى وسط دويّ المدافع و"هوسات" العقيليين وأناشيد وصيحات الإنكشارية.[1]

في وسط تلك الفوضى، علم سعيد باشا بأن عشيقه حمادي العلوجي أصيب بجراح وأنه مطروح في إحدى غرف القلعة الداخلية، فهرع إليه مسرعاً وظل بجنبه لا يفارقه غير مبال بما كان يحدث في الخارج

حينئذ اجتمع رجال الدين والأعيان وكتبوا محضراً إلى داود باشا يحثونه للإسراع في دخول بغداد لإنقاذ المدينة مما أصابها، وفي شباط (فبراير) سنة 1817م دخل داود باشا بغداد.

بعد أن سيطر داود باشا على بغداد أمر بقتل سعيد باشا، فخرج سيد عليوي أغا الإنكشارية يبحث عنه بغية قتله. قال سليمان فائق: "... فأمر داود باشا بعض السفاكين الفجار بقتل سعيد باشا وساروا إليه بعد قطعة من الليل فقرعوا باب داره قرعاً خفيفاً وكان الباشا واضعاً رأسه على ركبة أمه وكأنها كانت تهذي في مقام الضنى وهذيان المحموم، ... فتناولوه من حجر أمه، ولما قضوا أربا من قتله، احتزوا رأسه وغادروا جثته مغطاة بحصيرة بالية، فهامت أمه وأضاعت رشدها وأصبحت تضطرب في ساحة الدار وتنادي أين أنت يا سعيد ..."[2]

بعد بضعة أيام قتل حمادي العلوجي، بعد أن تعرض لتعذيب شديد. يقال إن زبانية داود باشا، كانوا يضربونه ويقطعون من لحمه وهو حي، طالبين منه أن يدلهم على ما لديه من أموال، وكان يتضرع لهم ليعجلوا بقتله ليخلص من ذلك العذاب الوحشي.[3]

---

(1) علي الوردي. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ،ج1ص228

(2) سليمان فائق بك – تاريخ المماليك "الكولمند" ببغداد، ص50

(3) عباس العزاوي. تاريخ العراق بين احتلالين، ج6ص243

آخر المماليك الكرج

داود باشا

ولد داود بتفليس سنة 1767م، ويقال إنه اختطف وبيع في سوق الرقيق بتفليس، وجيء به إلى بغداد سنة 1780م، وبيع في سوق الرقيق حيث اشتراه أحد وجهاء بغداد هو مصطفى بك الربيعي، ولكن الربيعي باعه بعد أيام فقط فصار يتنقل من يد إلى يد حتى انتهى به المطاف إلى سليمان باشا الكبير الذي كان في بداية ولايته ببغداد، فأدخله الوالي الجديد في زمرة مماليكه وأخضعه للتدريب وانتظم في صنف الكرج الذين يسمون (آجيق باش) أي "مكشوف الرأس"

في سراي سليمان الكبير بانت مواهب داود وتفوقه على أقرانه الكرج في استعمال السلاح وفي العلوم خاصة آداب اللغة العربية، فعينه الوالي سليمان الكبير كاتباً خاصاً باعتباره كان يجيد اللغة العربية والفارسية والتركية، ثم ترقى إلى منصب في المهردارية، وبعد ذلك رقاه سليمان الكبير إلى منصب (خازن) (أي ما يعادل وزير الخزانة) وزوجه بإحدى بناته، وهكذا انفتحت أمام داود جميع الأبواب للارتقاء إلى أعلى المناصب.

يبدو أن زواج داود من ابنة سليمان الكبير وارتقائه إلى تلك المناصب الرفيعة، أثار حسد ومخاوف الكهية علي باشا واعتبره منافساً خطراً له، ولذا أخذ يتحين الفرص للوقيعة به، ولكن داود كان واعياً للخطر الذي يحيق به، ولتفادي شر علي باشا الذي خلف سليمان الكبير. ترك داود سلك الوظيفة وانسحب عن الحياة العامة، وانزوى في جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني وانصرف لدراسة العلوم الدينية، وبقى على تلك الحال قرابة خمس سنوات، ولم يعد إلى الوظيفة الرسمية وبقى على تلك الحال قرابة خمس سنوات، ولم يعد إلى الحياة العامة وسلك الوظيفة إلا بعد مقتل علي باشا.

إلا بعد مقتل علي باشا.

كان لانصراف داود إلى دراسة العلوم الدينية وآداب اللغة العربية، أثر عميق في تكوين شخصيته بعد أن بلغ درجة متقدمة في ميدان العلوم الدينية، وتلك كانت حالة لم يكن لها مثيل في عهود الحكم العثماني بالعراق، وهذه الميزة منحت عهد داود الذي قدر له أن يكون آخر حكام المماليك الكرج طابعاً خاصاً به، بالرغم من أن عهده لم يختلف جوهرياً عن عهد غيره من المماليك الكرج الذين أوغلوا بسياسة القسوة والغدر وسفك الدماء. ومما يلفت النظر أن داود استمر في مواصلة الدرس وتدريس العلوم الدينية، حتى بعد عودته إلى الوظيفة بالديوان، وكأنه كان يحاول أن ينأى بنفسه عن السمعة السيئة التي نالها الحكام الكرج، ويظهر للناس بمظهر مختلف.

مما يثير العجب أن نجد في شخصية وأخلاق داود جانباً آخر لا يختلف كثيراً عن أخلاق أبناء جلدته من الحكام الكرج، فالمصادر تشير إلى أن التجربة أثبتت بأن داود باشا كان يجمع صفات متناقضة، فهو جبان متردد، ولئيم لا تخلو مواقفه من الغدر بالآخرين. قال لونكريك:

"... غير أنه كان يظهر الجبن والتردد في مناسبات خطيرة، وفي مناسبات أخرى كانت تستفحل فيه البسالة. ... وكان كرمه مصحوباً بجشع مسنون... ولم يكن وفياً في معاملته للأشخاص، ولا مستقراً على حال..." (1)

وقد أكد لنا سليمان فائق ذلك المنحى في أخلاق داود باشا فقال:

"... فأصغت ضمائر داود باشا إلى الغدر وحب التشفي، واختطف سعيد باشا من حجر أمه فأراق دمه وخلد في صحائف التاريخ اسمه مقروناً بهذا العمل. ومجمل القول: إن داود باشا أخذ ثأره من سعيد باشا و حمادي و الدفتردار محمد سعيد وانتقم أيما انتقام..."(2)

سياسة داود نحو العشائر العراقية

بعد وفاة سليمان الكبير خاض أمراء المماليك الكرج فيما بينهم نزاعات وصراعات دموية دامت قرابة خمسة عشر عاماً انحسرت أثناءها سطوتهم عن مختلف أنحاء البلاد، وعجزت حكوماتهم من السيطرة على المناطق الزراعية في وسط وجنوب العراق، وكالمعتاد انتهزت العشائر العراقية فرصة غياب سلطة حكومة بغداد، وتمكنت من تعزيز سلطتها في مناطقها الزراعية وبسط سيطرتها حتى على طرق المواصلات في تلك المناطق، وفي تلك الأثناء فرضت بعض العشائر الإتاوات على قوافل التجار وعلى المسافرين المارين بتلك المناطق، وكان من نتائج تلك التطورات إفلاس خزينة الحكومة.

تحرك داود باشا وجهز عدة حملات عسكرية، سيّرها من بغداد لمهاجمة العشائر العراقية في وسط العراق، سواءُ السنية منها أم الشيعية، بقصد أضعافها ونهب أموالها وحمل تلك الأموال المنهوبة إلى بغداد.

(1) ستيفن هيمسلي لونكريك. أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص288

(2) سليمان فائق بك – تاريخ المماليك "الكولمند" ببغداد، ص51

سارت أولى تلك الحملات العسكرية نحو ديار بني تميم غربي بغداد وسارت حملة أخرى لمهاجمة عشيرة الباوية من شمر والدفافعة وألبو موسى، وسارت حملة عسكرية ثالثة لمهاجمة العشائر المجتمعة بمنطقة المحمودية، وقد كانت التعليمات والأوامر تؤكد على نهب الأموال والحيوانات والمخزون من الطعام والعودة بها إلى بغداد.

وقد علق العزاوي على حملات حكومة داود باشا ضد العشائر العراقية فقال: "... وبهذه الغارات والغزوات سد الوزير عجز ماليته ..." (1)

هذه مسألة جوهرية تستحق أن نتوقف عندها ونتأمل أبعادها، فحتى في عهد داود باشا وهو الحاكم الكرجي المثقف والأديب الذي درس علوم الدين ونال فيها درجات أهّلته لإلقاء الدروس على طلاب العلوم الدينية في ديوان السراي، نراه يستعمل السراي نفسه لتجهيز حملاته العسكرية التي كان يسيرها لقتل عرب العراق وتدمير ديارهم ونهب أموالهم ومواشيهم ونقلها إلى بغداد وتخزينها في مواقع ربما لا تبعد كثيراً عن قاعة دروسه الدينية.

إن سيرة داود باشا تقدم لنا درساً يؤكد لنا أن طبيعة النظام هي التي تتحكم في رسم سياسة الحكم، وأن ثقافة الفرد الذي يتربع على كرسي الحكم وقيمه الأخلاقية والدينية مهما كان لونها، لا تمنع صاحبها، كما كان الحال مع داود باشا، من الخضوع لإرادة المؤسسة الحاكمة التي أتت به ووضعته في دست الحكم، فإن أراد أن يتمسك بذلك الكرسي، فلابد له أن يضع ثقافته ودينه وقيمه الأخلاقية جانباً، وهذا ما عمل به داود باشا حينما شن حملات السلب والنهب التي حرمتها الشرائع السماوية والدساتير الدنيوية، وحبك المؤامرات وقتل الأبرياء من أجل إدامة حكمه.

سقوط الدولة الوهابية

أثار استيلاء عبد العزيز على مكة موجة من الفزع في مختلف أنحاء الدولة العثمانية خاصة في بلاد الشام، إذ انتشرت إشاعات تقول إن عبد العزيز آل سعود يملك قوة عسكرية لا تقهر، وبإمكانه الاستيلاء على فلسطين وسوريا وحتى على الأقاليم التركية في الدولة العثمانية.

في تلك الأيام كانت حكومة اسطنبول تعّول على الحكام الكرج ببغداد، وتتوقع منهم مواصلة الحرب ضد الوهابيين والاستيلاء على عاصمتهم الدرعية، باعتبار أن حكومة بغداد كانت تملك قوة عسكرية كبيرة قادرة على مواصلة الحرب، وكذلك لقرب العراق من نجد، ناهيك عن استمرار هجمات الوهابيين على

---

(1) عباس العزاوي. تاريخ العراق بين احتلالين، ج6ص249

الأراضي العراقية. ولكن امتناع حكومة المماليك الكرج عن مواصلة الحرب ضد الوهابيين، أثار سخط حكومة السلطان العثماني، وفرض عليها البحث عن مخرج من تلك المشكلة العويصة التي أذلت الحكومة العثمانية، ونالت من هيبتها العسكرية. للخروج من ذلك المأزق الخطير، خاصة بعد دخول الوهابيين المدينة المنورة سنة 1810م، وعجز حكومة السلطان من إرسال جيوشها للتصدي لذلك التوسع الوهابي، اضطرت حكومة السلطان تكليف والي مصر آنذاك محمد علي باشا، لتنفيذ تلك المهمة وأمرته بالتحرك نحو الحجاز لطرد القوات الوهابية من المدن المقدسة.

محمد علي باشا والي مصر

في تلك المرحلة التاريخية كان محمد علي باشا الألباني الأصل، لازال يعاني من مشاكل داخلية عديدة، كان أخطرها تهديد عساكر مماليك مصر ذوي الأصول القوقاسية، مثل الكرج واللاز والأفخاز، الذين أنتزع محمد علي حكم مصر من أيديهم، إضافة إلى سوء أوضاعه المالية وضعف قدرته على السيطرة على الجيش، وخوفه الدائم من ضباطه القوقاسيين الذين لا يدينون له بالولاء باعتبار أنه لا ينتمي إلى العنصر القوقاسي.

يبدو أن محمد علي باشا رأى أن اضطلاعه بمسؤولية مثل تلك الحملة العسكرية من قبل السلطان العثماني، سيتيح له الفرصة للقضاء على عسكر المماليك القوقاسيين وإنهاء نفوذهم الكبير في مصر وبالجيش، وذلك بمصادرة إقطاعياتهم الزراعية الكبيرة والتصرف بها لصالحه وصالح ضباطه من الألبان.

مذبحة المماليك الكرج بمصر

في أواخر سنة 1807م أصدر السلطان العثماني فرماناً إلى محمد علي باشا للقيام بتلك الحملة العسكرية وأرسل له مع الفرمان سيفاً. وكان أول ما قام به محمد علي باشا بعد استلامه الفرمان رسم خطة محكمة لذبح أمراء عسكر المماليك القوقاسيين بالقاهرة، ومن ثم ذبح الباقين منهم الذين كانوا ينتشرون في جميع أنحاء مصر حيث كانوا يملكون خيرة الأراضي الزراعية على شكل إقطاعيات تنتشر على طول وادي النيل.

لتنفيذ الخطة أعلن محمد علي باشا إقامة حفلة بالقلعة لتسليم ولده طوسون باشا فرمان السلطان العثماني والسيف الذي أهداه له السلطان في تلك المناسبة. قال صاحب تاريخ الدولة العلية العثمانية في وصف تلك المذبحة:

"... في اليوم المعهود دعي رؤساء المماليك إلى القلعة فجاءوا في موكب منتظم ولما دخل الجميع من باب الغرب وانحشروا في المضيق الموصل منه إلى الباب الأوسط أغلقت الأبواب وأطلقت عليهم البنادق من خلف الأسوار أعلاها حتى قتلوا عن آخرهم وفي الوقت نفسه نهب جنود محمد علي باشا

منازلهم بالمدينة وقتلوا من تخلّف منهم عن الحضور، ثم أرسل إلى عمّاله في الأقاليم بقتل جميع المماليك القاطنين خارج العاصمة فقتلوهم وصاروا يتنافسون في إرسال رؤوسهم إليه وبذلك طُهّرت مصر من أدران هذه الفئة ..." (1)

الحملة العسكرية المصرية

(لقد أوردنا تفاصيل مهمة عن الحملة العسكرية المصرية التي انتهت بتدمير الدرعية عاصمة الوهابيين، واستسلام الأمير عبد الله للقوات المصرية بدون قيد أو شرط، يمكن للمهتمين مراجعتها في ج4 من هذا الكتاب)

مشاكل داود باشا مع حكومة القاجار في إيران

تُعَدُّ قبيلة القاجار من قبائل التركمان الكبرى التي التحقت بجيوش جنكيز خان بعد انهيار دولة خوارزم شاه، وبعد سقوط الدولة العباسية سكنوا في مناطق رعوية بين إيران وآسيا الصغرى خاصة في أرمينية، وفي أبان تأسيس الدولة الصفوية برز اسم القاجار باعتبارهم من قبائل الترك السبع التي أسهمت في الثورة الصفوية التي قادها الشاه إسماعيل بن الشيخ حيدر الصفوي. ومن المعروف أن القاجار لعبوا دوراً كبيراً في تشييد صرح الدولة الصفوية ومد سيطرتها من أذربيجان التركية مهد الثورة الصفوية، لتشمل كافة أنحاء شبه القارة الإيرانية.

ظل القاجار قوة قبلية كبيرة وفاعلة حتى بعد سقوط الدولة الصفوية وقيام حكومة نادر شاه الأفشاري. وبعد اغتيال نادر شاه أصبح القاجار قوة قاهرة تهدد الملوك الذين حكموا بعده، وقد استمر ذلك النفوذ أيام الحكومة الزندية. ومن المعروف أن إيران تعرضت في تلك الأيام إلى فوضى سياسية وصراعات عسكرية داخلية أنهكت البلاد وأضعفتها وعادت بها إلى الوراء.

بعد وفاة كريم خان الزند، وبعد صراعات دموية مريرة، تمكنت قبائل القاجار التركمانية بقيادة "أغا محمد خان" المعروف بقسوته وميله الشديد للبطش والعدوان، من دحر الجيوش الزندية وتأسيس الدولة القاجارية. وفي سنة 1795م أعلن أغا محمد خان نفسه ملكاً على إيران، وأختار طهران عاصمة للدولة.

عمل أغا محمد خان على بناء إمبراطورية تضُم خراسان وجميع أقاليم تركستان وأقاليم القفقاس

---

(1) محمد فريد بك. تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص407

وهرات وأفغانستان وكردستان، وبعد أن دانت له جميع البلاد الإيرانية انصرف إلى تقوية جيشه وتوسيع فتوحاته في مناطق ما وراء القفقاس بما في ذلك جورجيا. في تلك الفترة كان العثمانيون منشغلين بمشاكلهم الداخلية وصراعاتهم العسكرية مع النمسا وروسيا القيصرية، ولذا لم يكن بدٌّ أمام الدولة العثمانية إلا ترك أمور إيران للقاجاريين، وهذا ما سار عليه والي بغداد سليمان باشا الكبير الذي اتبع سياسة توطيد علاقات سلمية مع الحكومة القاجارية في إيران.

فتح علي شاه

هو ثاني ملوك القاجار تولى العرش في سنة 1797م ولقب نفسه (شاه بابا قاجار) وذلك على الطريقة التركية ولكن في مراسيم تتويجه الرسمية اتخذ اسم فتح على شاه، وقد دام حكمه في إيران حتى سنة 1834م.

في بداية القرن التاسع عشر في عهد فتح علي شاه، اتسعت اتصالات إيران بالدول الأوربية خاصة بعد ظهور نابليون بونابرت على مسرح السياسة الأوروبية. في تلك الأيام عمل نابليون على التقرب من حكومة القاجار والتحالف معها لجعل إيران ممراً لغزو الهند التي كانت تسمى "درة التاج البريطاني" ولكن ذلك المشروع فشل لأسباب نحن لسنا بصددها الآن، فانتهزت بريطانيا الفرصة وعرضت على حكومة القاجار عقد تحالف تدفع بريطانيا بموجبه إلى إيران مبلغ مالي سنوي يعادل 120 ألف باون إسترليني مع التعهد بإرسال ضباط بريطانيين لتدريب الجيش الإيراني. أما شركة الهند الشرقية فقد تعهدت كذلك أن تدفع لحكومة فتح علي شاه مساعدات مالية كبيرة والتزمت بتقديم الأسلحة والذخيرة للجيش الإيراني مع ضباط للتدريب. تم توقيع تلك المعاهدة في سنة 1809م، وبموجب تلك المعاهدة تعهد فتح علي شاه منع أية قوة أجنبية من المرور عبر الأراضي الإيرانية لغزو الهند، وعبر تلك التطورات تمكنت حكومة القاجار من تحديث جيوشها وتعزيز قدراتها العسكرية.

لقد تزامنت تلك التطورات مع ضعف حكومات المماليك الكرج، خاصة بعد وفاة سليمان باشا الكبير، إذ شهد حكم عسكر المماليك الكرج فترة نزاعات وصراعات دموية أدت إلى إنهاك قواهم وإضعاف حكومتهم، وهذا بدوره حفز أمراء بابان وشجعهم على تعزيز استقلاليتهم، وتوسيع مناطق نفوذهم، ولكن تلك الحالة أثارت نزاعات بين الأمراء أنفسهم مما دعاهم إلى الاستعانة إما بحكومة بغداد أو بحكومة القاجار ضد خصومهم. قال حسن الجاف: "... وما هو جدير بالإشارة أن منطقة كردستان كانت مبعث النزاع بين الدولة العثمانية وإيران فإذا حدث النزاع على الحكم بين زعماء الأكراد، هنالك أسرع بعضهم إلى حكومة

إيران ليتخذها سنداً على خصمه وقد تنتهز حكومة إيران الفرصة فترسل قواتها لمساعدة هذا الفريق من الأمراء ضد الأخر، وقد يؤدي ذلك إلى نشوب القتال بين البلدين ..." (1)

من الأمراء ضد الأخر، وقد يؤدي ذلك إلى نشوب القتال بين البلدين ..." (2)

من المعروف أن أزمة العلاقات دخلت مرحلة جديدة، بعد أن عين فتح علي شاه ولده "الشاهزادة" محمد علي ميرزا، حاكماً على كرمانشاه المتاخمة للحدود العراقية، فقد اشتهر هذا الشاهزادة بشراسته وقوة شخصيته ونزعته للتوسع، ولتحقيق طموحاته عمل منذ البداية على رفع مستوى جيشه وتسليحه على الطريقة الأوربية، وكان الشاهزادة يطمح إلى السيطرة على أمارة بابان والتحكم بمناصبها الإدارية كما تقتضيه مصلحة حكومته، ولابد أن تدخله السافر واختراقه الحدود في عهد الوالي عبد الله باشا كان خير دليل على أطماع الشاهزادة في إمارة بابان، ومن المعروف أن الشاهزادة هم بمهاجمة الأراضي العراقية مرة أخرى في عهد سعيد باشا الضعيف، لو لم يتدخل السفير البريطاني، الذي يقال أنه أقنع الشاه بوجوب احترام الحدود بين الدولتين التي ثبتتها معاهدة زهاب لسنة 1639م. (3)

(في تلك الفترة العصيبة واجهت حكومة داود باشا مشاكل معقدة متعددة الأبعاد مع حكومة القاجار من جهة، وأمراء بابان من جهة أخرى، إضافة إلى مشاكلها مع عشائر عرب العراق. يمكن للمهتمين الاطلاع على تفاصيلها في ج4 من هذا الكتاب)

النجف تواجه الخطر الوهابي

بعد هجوم الوهابيين على كربلاء، وظهور تهاون حكام المماليك الكرج وتقاعسهم المتعمد في حماية المدن المقدسة، كما بدا واضحاً من تصرفات علي باشا، أخذ رجال المرجعية الدينية بالنجف على عاتقهم، مسؤولية حماية مدينتهم، وتهيئة وسائل الدفاع عنها، وقد تجلى دور المرجعية التي كان على رأسها آنذاك الشيخ جعفر كاشف الغطاء، في أسمى مظاهره، كما تشير المصادر التاريخية، في معارك الدفاع عن النجف في سنة 1806م، إذ حشد الشيخ جعفر طلاب العلوم الدينية بما فيهم أولاده، وباقي رجال النجف

---

(1) حسن كريم الجاف – الوجيز في تاريخ إيران، ج3ص205

(2) حسن كريم الجاف – الوجيز في تاريخ إيران، ج3ص205

(3) ستيفن هيمسلي لونكريك. أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ص292

الذين استماتوا في الدفاع عن مدينتهم المقدسة، أذهلت الغزاة الوهابيين وأجبرتهم على الابتعاد عن أسوار المدينة الصامدة، والانسحاب باتجاه الجنوب.

الشباب الزكرت

بعد دحر الغزاة الوهابيين، ولتفادي أي هجوم مفاجئ على المدينة المقدسة، اختار الشيخ جعفر مجموعة من الشباب، اشترى لهم أسلحة وعدة كاملة، وأوكل إليهم مهمة المرابطة على حدود النجف، والتجول كفرق كشافة تتقصى أخبار تحركات الوهابيين وخاصة في البوادي الممتدة غربيَّ النجف، لكي تتصدى للجماعات الوهابية في الوقت المناسب.وكان تعداد هؤلاء حوالي المائة رجل، كانوا يخرجون على خيولهم يتجولون في الوديان المحيطة بالنجف، يتلهون أحياناً بصيد الظباء والطيور، ويتبارون أحياناً أخرى لإظهار مهاراتهم باستعمال السلاح. ولأنهم كانوا شباباً عزاباً، عرفوا بـ"الزقرت" أو "الزكرت". انضم إلى تلك الجماعة شاب حداد اسمه عباس من قبيلة العبودة، ومن المعروف أن طلاب العلوم الدينية وأغلبهم من أبناء العشائر العراقية، كانوا ينضمون في كثير من الأحيان إلى أفراد تلك الجماعة، ويخرجون معهم وهم مدججون بكامل أسلحتهم ليشاركوا في التصدي ومطاردة الجماعات الوهابية.

عباس الحداد والسيد محمود الرحباوي

ينتسب السيد محمود بالخؤولة إلى كليدار النجف وحاكمها آنذاك الملا محمود، وكان يمتلك بساتين ومزارع واسعة تروى من مياه "عين" الرحبة التي تقع على حافة الصحراء على مسافة حوالي 30 كم غربي النجف، وكانت تعد المحطة الأولى بعد النجف على طريق قوافل الحج الذاهبة إلى الديار المقدسة، إضافة إلى أنها محط استقبال قوافل الاكتيال القادمة من الصحراء، ويبدو أن السيد محمود الرحباوي كانت له مصالح تجارية مع تلك الجماعات القادمة من البادية ومنها الجماعات الوهابية، ولذا كان يستقبلها بحفاوة. ويقال إنه كان يستضيف بحفاوة بالغة أمير الوهابيين سعود. ولكن حينما كوّن الشيخ جعفر كاشف الغطاء جماعة الشباب الذين عرفوا بـ"الزكرت" رفض السيد الرحباوي التعاون معهم، أو استقبالهم لتزويدهم بالمعلومات عن تواجد الجماعات الوهابية في تلك المناطق، وكان يقول إنه مضطر للتعاون معهم، خوفاً على حياته وأملاكه من انتقام الوهابيين. لابد أن ذلك الموقف كان يثير مشاعر العداء بين أهل النجف والسيد محمود الرحباوي، حتى أن إشاعات كانت تدور في الأوساط النجفية مفادها أن السيد الرحباوي يزوّد الوهابيين بما يحتاجونه من معلومات عن دفاعات المدينة. ومن الجدير بالملاحظة أن تلك الفترة شهدت توتراً وعداء سافراً، بين المرجعية الدينية والملالي أخوال السيد الرحباوي، وعلى رأسهم الملا محمود الكليدار وذلك لأسباب عديدة منها علاقات السيد الرحباوي بالوهابيين، وكذلك أساليب الملالي في إدارة المدينة

المقدسة، باعتبار أن السيد محمود الكليدار حاكم النجف المعين من قبل حكومة بغداد، كان يتمادى في فرض رسوم جائرة على سكان المدينة، وعلى زوار المرقد العلوي، وكذلك على الجنائز التي كانت ترد إلى النجف من خارج المدينة لتدفن فيها.

الملالي سدنة الحرم العلوي

تنتسب عائلة الملالي إلى الملا عبد الله الذي شغل منصب خازنية الحرم العلوي (الكليدار) في القرن السابع عشر الميلادي. وتشير الروايات أن الملا عبد الله كان يشغل المنصب عند زيارة الشاه عباس الصفوي إلى النجف في سنة 1625م، وكان يُعَدُّ من رجال العلم والفضل في زمانه. وقد توالى رجال الملالي على منصب الخازنية أكثر من عشرة أجيال دامت قرابة ثلاثة قرون. ومن المعروف أنهم في فترات لاحقة استلموا منصب حاكمية النجف، وفي الغالب كان ذلك أثناء ولاية حسن باشا (1704م . 1723م)، وأن الأخبار تشير أن الملالي أدوا خدمات جليلة لمدينة النجف، ولكن يبدو أن علاقاتهم مع سكان المدينة، أخذت تسوء في عهد المماليك الكرج خاصة في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، الذي شهد تفسخ وانهيار الأجهزة الإدارية وضعفها وشهد بداية الغزوات الوهابية على الأراضي العراقية.

في تلك الفترة كان الملالي يمسكون بمنصب حاكمية النجف ويتولون عن طريق (الالتزام) مسؤولية جمع الرسوم والضرائب من زوار الحرم العلوي ومن الجنائز التي كانت ترد لتدفن في أرض النجف. ومن المعروف أن التزام ذلك النوع من الرسوم، كان يدر عليهم مبالغ طائلة، وكان الملالي يدفعون لحكومة بغداد مبلغاً ثابتاً كبدل التزام، (حسب نظام اللزمة المطبق في تلك الأيام) وكانت الدولة تمنح الملتزم حق التصرف في فرض الرسوم وطريقة جمعها، ولابد أن سوء أوضاع البلاد الاقتصادية وتفسخ الإدارة وانحطاطها في أواخر القرن الثامن عشر، وعمق كراهية الشعب للحكام الكرج، أثر سلبياً على تصرفات الملالي في فرض وجمع تلك الرسوم، وهذا بدوره أساء إلى مركزهم الاجتماعي بالنجف، وعلاقاتهم بالناس بصورة عامة، وبالمرجعية الدينية التي ترعى مصالح المسلمين بصورة خاصة. ومما زاد بالطين بلة وفاقم الأوضاع، المشاكل التي ثارت حول السيد محمود الرحباوي.

حدث ذات يوم أن جاء إلى الشيخ كاشف الغطاء أولاد عم السيد محمود الرحباوي، الذين كانوا شركاءه في أملاك واحة الرحبة، وادعوا أن السيد محمود أنكر حقهم بالأملاك والبساتين وطردهم من المنطقة. وكان للسيد الرحباوي أختان تقدمتا بالعمر، ولكن السيد محمود كان يرفض تزويجهن حتى من أبناء عمومتهن، فبعثتا للشيخ تشكيان أخاهما وتترجيان منه التدخل في أمر زواجهن.

يقال إن الشيخ جعفر حاول بالبداية عدم إقحام نفسه في تلك المشاكل، ربما لتفادي المواجهة مع السيد الرحباوي من جهة، ومع أخواله الملالي المتنفذين بالنجف من جهة أخرى. ولكن بعد إلحاح وتوسل

قرر الشيخ إرسال جماعة من رجال الدين المدججين بالسلاح ومعهم عباس الحداد لدعوة السيد الرحباوي للاجتماع بأبناء عمه في مجلس الشرع. ولكن السيد الرحباوي طرد جماعة الشيخ جعفر وأغلق أبواب قصره دونهم.

في اليوم التالي وجد السيد محمود الرحباوي مقتولاً في قصره، وقد شاع أن عباس الحداد هو الذي قتله. بعد مقتل السيد محمود الرحباوي أعلن أخواله الملالي، حرباً شعواء ضد المرجعية الدينية وعلى رأسها الشيخ جعفر كاشف الغطاء، طلباً بثأر السيد الرحباوي، باعتبار أن رجال الدين كانوا وراء مقتله، ويبدو أن الملالي وجدوها فرصة مناسبة لإعلان الحرب على المرجعية الدينية، لأنها حجّمت في تلك الأيام نفوذهم، وعزلتهم شعبياً بالنجف، نتيجة موقفهم من العدوان الوهابي على النجف، وتعسفهم في فرض الرسوم و الإتاوات على السكان وعلى زوار المرقد العلوي وعلى الجنائز التي كانت ترد لتدفن بالنجف.

كانت تلك البداية لحرب شعواء وصراعات مريرة بين المرجعية الدينية متمثلة بالشيخ جعفر كاشف الغطاء من جهة والملا محمود سادن الحضرة العلوية وحاكم النجف. ويبدو أن الملا محمود الكليدار حاكم النجف آنذاك، لم يدرك أبعاد الأزمات السياسية التي كان يواجهها حكم المماليك الكرج بالعراق، والتقلبات والأخطار التي يمكن أن تواجه مركزه ومركز عائلته التي تولت مهام السدانة وحاكمية النجف لعدة أجيال، وقد ظهر ذلك في تماديه في محاربة رجال الدين وأصحاب الشيخ كاشف الغطاء، إذ كان يأمر عبيده بإغلاق أبواب الصحن الشريف عدا الباب الشمالي (باب الطوسي) فينحصر خروج الناس وزوار الحضرة منها، وكان يجلس هناك ومن حوله عبيده وهم مدججون بالسلاح يعتدون على الزوار وعلى رجال الدين من أصحاب الشيخ كاشف الغطاء.

بعد مرور سبعة أشهر تقريباً على مقتل السيد محمود الرحباوي، توفي في سنة 1813م الشيخ جعفر كاشف الغطاء، وبعد وفاته انبرى لزعامة الحوزة الدينية بالنجف ولده الشيخ موسى، الذي كان يعد من أكبر علماء زمانه. أما الملا محمود فقد استمر في ملاحقة رجال الدين وإيذائهم بمختلف الأساليب، وجعل يتربص بالشيخ موسى وباقي أولاد الشيخ جعفر، ويحرض حكام المماليك ببغداد على قتلهم. لكن لابد أن نتذكر أن تلك الأحداث وقعت في أحلك عهود المماليك الكرج حيث غاب القانون وضربت الفوضى أطنابها ببغداد، حيث المماليك الكرج يقتل بعضهم بعضاً من أجل الاستحواذ على السلطة والمال الحرام، فقد قُتل الوالي علي باشا ثم بعده سليمان الصغير وتلاه الوالي عبد الله باشا ثم جاء دور سعيد باشا الذي قطعت رأسه وهو يحتمي بحجر أمه.

في تلك الحقبة المضطربة التي عاشها العراق مهدداً بالغزو الوهابي، وحكام بغداد منهمكون في مؤامراتهم الدموية التي أنهكت البلاد وأضعفتها وعرضّتها للمزيد من العدوان الخارجي، كوّن الملالي بالنجف جماعات مسلحة اشتهر أفرادها باسم (الشمردل) أو "الشمرت" لمحاربة أصحاب الشيخ جعفر كشف الغطاء، باسم الثأر للسيد الرحباوي الذي لم يُعرف قاتله، وهكذا أشعلوا نيران فتنة عمياء بالنجف، أريقت أثناءها

الكثير من دماء الأبرياء، إذ كان المسلحون من رجال الملا محمود يلزمون الأماكن العالية بما فيها المآذن، يطلقون منها نيران بنادقهم إلى جهة الزقرت في محلة العمارة بما فيها دور آل كشف الغطاء وغيرهم من رجال الدين، وكان عباس الحداد وأصحابه يقابلونهم بالمثل، وحسب رواية صاحب ماضي النجف أنضمّ إلى عباس الحداد: "عدد من طلاب العلوم الدينية الذين ينتمون إلى عشائر عراقية وكانت لهم عدة كافية من السلاح"[1] .

هكذا استمرت نيران تلك الفتنة التي سادت فيها العقلية البدائية وروح الشر لسنوات عديدة، وفي أثناء ذلك جرت أحداث وتحولات مهمة أوردنا تفاصيلها في (الفصل الرابع من الباب الخامس من ج4) من هذا الكتاب يمكن للمهتمين مراجعتها. من أهم تلك الأحداث، وفاة الشيخ جعفر كاشف الغطاء سنة 1813م وتولي ولده الشيخ موسى زعامة الحوزة الدينية بالنجف، وفاة الملا محمود سنة 1815م وتولي الملا سليمان السدانة وحكومة النجف، عزل الملا سليمان من قبل داود باشا وتعيين عباس الحداد مكانه، مقتل الملا سليمان في صحن المرقد العلوي وبعد فترة قصيرة قتل عباس الحداد من قبل عساكر الحكومة.

(1) الشيخ جعفر محبوبة . ماضي النجف وحاضرها، ج1ص334

تحول مجرى الفرات

في القرن السابع عشر، كانت مدينة النجف بلدة صغيرة تعاني من العطش لبعدها عن المجرى الرئيسي آنذاك لنهر الفرات، الذي كان يجري نحو الحلة، ولم يكن فيها من مصادر المياه سوى ما تحصل عليه من ثلاث أو أربع آبار ماؤها آسن لا يصلح للشرب، وقناة قديمة جافة شقها الشاه عباس الصفوي تحت الأرض لإيصال ماء الفرات إلى المدينة. هذا ما ذكره الرحالة الفرنسي تافرنية في رحلته السادسة والأخيرة من 1663م إلى 1668م[1] ولابد أن صورة النجف هذه، تختلف عن النجف التي شاهدها الرحالة المغربي ابن بطوطة قبل زيارة الرحالة الفرنسي بأكثر من ثلاثة قرون، إذ كتب أبن بطوطة عن زيارته للنجف في سنة 1331م فقال:

"... ثم رحلنا منها فنزلنا مدينة مشهد علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، بالنجف، وهي مدينة حسنة في أرض فسيحة صُلبة من أحسن مدن العراق، وأكثرها ناساً، وأتقنها بناءً، ولها أسواق حسنة نظيفة، دخلناها من باب الحضرة، فاستقبلنا سوق البقالين والطباخين والخبازين، ثم سوق الفاكهة ثم سوق الخياطين والقصّارية، ثم سوق العطارين، ثم باب الحضرة حيثُ القبر الذي يزعمون أنه قبر علي عليه السلام، وبإزائه المدارس والزوايا والخوانق، معمورة أحسن عمارة، وحيطانها بالقاشاني، وهو شبه الزليج عندنا لكن لونه أشرق ونقشه أحسن. ... ويدخل من باب الحضرة إلى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة، ولكل وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم..."[2].

هنا نواجه مسألة مهمة ترتبط بخصوصية موقع النجف الجغرافي وبعدها عن نهر الفرات، ولذا فإن الصورة التي رسمها لنا بن بطوطة والتي تشير إلى ازدهار النجف، هي في حقيقة الأمر تعكس ما كان يتوفر للنجف من مياه للشرب، وذلك بفضل مشاريع الري التي قامت لأحياء منطقة النجف في تلك العهود، وكان أهمها مشروع صاحب ديوان العراق في عهد المغول علاء الدين الجويني، الذي أشرنا إليه في الجزء الأول من هذا الكتاب، وذكرنا: "إن علاء الدين الجويني أجرى نهراً من قصبة الأنبار إلى النجف الأشرف، فتأسست عمارات وقرى على جانبيه وعددها مائة وخمسون قرية فانقلبت تلك الأراضي القاحلة إلى مزارع متصلة، ويذكر بأن الجويني أمر ببناء رباط بمشهد الأمام علي بن أبي طالب في النجف ليسكنها المقيمون

---

(1) حمّود الساعدي. دراسات عن عشائر العراق الخزاعل،ص212

(2) عبد الله محمد (ابن بطوطة) رحلة ابن بطوطة، ص176

المجاورون ووقف عليه وقوفاً كثيرة وأدر لمن يسكنه ما يحتاج إليه.(1) وهكذا جاء وصف بن بطوطة شهادة واقعية لأهمية مياه ذلك المشروع لمدينة النجف.

وبعكس ذلك فإن ما شاهده الرحالة الفرنسي من بؤس ومعاناة، كان نتيجة مباشرة لانعدام المياه أو شحتها في المدينة المقدسة، وذلك بعد انسلاخ قرنين من الحكم العثماني بما في ذلك سنوات حكم حسن باشا وولده أحمد باشا وسنوات حكم المماليك الكرج، تلك الأيام الحالكة التي لم يشاهد فيها سكان وادي الرافدين سوى الحروب وغزوات السلب والنهب وإحراق القرى والمزارع وتخريب أنظمة الري.

أميرة من الهند

في أيام حكومة سليمان باشا الكبير، توالت أحداث غيرت تلك الصورة الكئيبة بالنسبة لتوفر المياه للمدينة المقدسة وزوارها، ولكن الذي حدث لم يكن بفعل حكومة المماليك الكرج، بل بفضل أميرة مسلمة جاءت من الهند لزيارة العتبات المقدسة.

في أواخر القرن الثامن عشر أي بعد زيارة الرحالة الفرنسي بثلاثة قرون ونيف، زارت النجف أميرة هندية شيعية هالها أن تجد أن سكان المدينة المقدسة وزوارها يعانون من عطش شديد، حيث لا تتوفر لهم سوى مياه عدد قليل من الآبار التي لا تصلح للشرب أو الاستعمال البشري، ولذا آلت تلك الأميرة على نفسها أن تبذل ما بوسعها لإنقاذ مدينة النجف من محنة العطش، وفعلاً بعد عودتها إلى بلادها خصصت من أموالها ما يلزم لحفر ترعة لإيصال المياه العذبة إلى المدينة المقدسة، ولتنفيذ ذلك المشروع أوكلت إلى آصف الدولة وزير السلطان الهندي محمد شاه، مهمة الاضطلاع بحفر ترعة بإمكانها إيصال مياه الفرات إلى النجف، بعد أن وفرت له الأموال اللازمة.

ترعة الهندية

في تلك الأيام كان المجرى الرئيسي لنهر الفرات يمر بمدينة الحلة، ولإيصال المياه إلى النجف تقرر أن يتم حفر ترعة فرعية من المجرى الرئيسي في منطقة المسيب، (حوالي 100كم شمال النجف) وباتجاه الجنوب الغربي، ولما كانت أرض النجف ترتفع عن مستوى مجرى الفرات حوالي ثلاثون متراً، وعدم إمكانية إيصال المياه إليها مباشرة، فقد تم حفر تلك الترعة لتمر بالقرب من مسجد الكوفة، الذي يبعد حوالي عشرة كيلومترات شرقي مدينة النجف، ثم تجري مياهها بعد ذلك نحو منطقة أبي صخير فالشنافية، ومن أبي

---

(1) أنظر ج1، ص149 . 150 من هذا الكتاب

صخير تم حفر جدول باتجاه النجف من جهة الغرب ينتهي بالمنخفض المعروف باسم (بحر النجف)، وقد بوشر بالعمل بالمشروع في سنة 1790م (أي بعد مرور عشر سنوات على حكومة سليمان باشا الكبير) وجرت المياه بالترعة في سنة 1793م.

بعد أن توفرت مياه الشرب التي هي أهم مقومات الحياة في مدينة بعيدة عن الأنهار مثل النجف، أصبح بمقدور المدينة المقدسة استقبال المزيد من الزوار والوافدين من طلاب العلوم القادمين من مختلف أنحاء البلاد، خاصة من مناطق عرب العراق. وبالنظر لتوفر الظروف اللازمة أصبح بإمكان العديد من أولئك الرجال الاستقرار بالنجف لمواصلة دراسة علوم الدين وآداب اللغة العربية وبالتالي الارتقاء في مراتب العلوم الدينية إلى مراحل عالية، وباستقرار أمثال أولئك الرجال تكونت بالنجف بيوتات دينية ذات جذور عشائرية ترتبط بمختلف عشائر عرب العراق، وبمرور الأيام اتسعت تلك الظاهرة حتى أصبح مجتمع النجف الديني، بمثابة تجمع كبير لأغلب مناطق وعشائر عرب العراق، وفي تلك الأثناء لمعت أسماء علماء كبار ينتمون إلى تلك المناطق أو العشائر.

ولادة فرات الهندية

بعد أن جرت المياه في تلك الترعة الصغيرة التي شقتها الأميرة الهندية، حدث ما لم يدخل في حسابات أصحاب المشروع، حيث أن تلك الترعة الصغيرة أخذت تتسع بسرعة هائلة وتستوعب المزيد من مياه الفرات، وذلك لأن مياه تلك الترعة أخذت تجري في أراضي ذات تربة غرينية رخوة شديدة الانحدار، وبصورة عامة أوطأ من مجرى فرات الحلة، مما تسبب في زيادة سرعة جريان المياه فيها، وأن سرعة جريان المياه ساعد على جرف التربة الرخوة، وهذا بدوره أدى إلى توسع المجرى وزيادة قدرته على استيعاب المزيد من المياه التي كانت تذهب إلى نهر الحلة.

بمرور السنين وبتعاقب الفيضانات، تفاقمت تلك الظاهرة وتحولت ترعة الأميرة الهندية، إلى نهر كبير أخذ يستوعب أكثر مياه نهر الفرات، التي كانت تذهب إلى فرات الحلة، وهكذا أصبح هو المجرى الرئيسي لنهر الفرات.

كيف تحولت منطقة الفرات الأوسط

إنّ تاريخ وادي الرافدين يبين لنا أن ظاهرة تحول مجاري الأنهار، لم تكن حالة فريدة بل إن التحولات في مجاري دجلة والفرات وفروعهما، كانت تحدث بصورة مستمرة أما لأسباب طبيعية كالفيضانات أو بفعل الإنسان. كانت تلك التحولات تحدِث تغيرات كبيرة ذات أبعاد اقتصادية واجتماعية وسكانية، في المناطق التي تحدث فيها، والتي يمكن تلخيص أهمها:

. بسبب تلك التحولات المائية تظهر أنهار وجداول وأهوار جديدة في المناطق التي تتحول إليها المياه، وبالمقابل تجف أنهار وأهوار المناطق التي تنقطع عنها المياه، وبالتالي تتحول مناطقها الزراعية وأهوارها إلى أراضٍ جرداء، بينما تظهر مناطق زراعية جديدة في مناطق كانت تشكو من قلة المياه، وهذا ما حدث بعد أن جرت المياه في ترعة الهندية.

بعد ظهور فرات الهندية، وصلت مياهه إلى أراضٍ جرداء كانت تشكو شحه المياه تمتد إلى الغرب من مجرى فرات الحلة، من جنوب المسيب مروراً بمنطقة الكوفة وحتى مشارف السماوة. ومن تلك المياه ظهرت مناطق زراعية وبساتين جديدة، وتكونت العديد من الأهوار والمسطحات المائية. منها هور الدخن وهور الكفل وبحر الشنافية وبحر النجف، الذي فاضت عليه مياه النهر الجديد من منطقة الشنافية وكونت ممراً مائياً يتصل ببحر النجف، ومن المعروف أن المسافرين والزوار أصبح بإمكانهم بعد تلك التحولات، السفر بالسفن من البصرة إلى النجف عن طريق نهر الفرات، ومن ثم الدخول إلى بحر النجف عبر ذلك الممر المائي، مما ساهم في زيادة تدفق الزوار إلى مدينة النجف، التي أصبح بإمكانها استقبال المزيد من أولئك الزوار بعد توفر المياه الصالحة للشرب فيها.

الحلة وفرات الهندية

تتكون منطقة الفرات الأوسط، من حوض زراعي كبير بيضاوي الشكل، يمتد من منطقة المسيب شمالاً وينحدر جنوباً حتى منطقة السماوة، وحينما ننظر في خارطة هذا الحوض الزراعي الكبير، ونستعرض تاريخه، نجد أن هذه المنطقة كانت عبر التاريخ، مهداً لحضارات ودول وكيانات زراعية عديدة، ففي هذا الحوض الزراعي الخصيب، ولدت دولة بابل، وقامت فيه دولة بني أسد، وفي العهد العثماني ظهرت سلطة الخزاعل. والجدير بالملاحظة أن تلك الدول والكيانات، كانت تظهر في المناطق التي تتحول إليها المياه، وبالعكس فإن اضمحلال تلك الدول والكيانات، كان يرتبط مباشرة بتحول مياه الأنهار عن

مناطقها، وعلى سبيل المثال لا الحصر، فإن دولة بني أسد ولدت في الجناح الشرقي لهذا الحوض، بعد أن تحولت مياه الفرات إلى الأراضي التي حلوا بها، والتي عرفت بحلة بني أسد،[1] بينما نجد أن اندثار مدينة الكوفة، الذي بدأ في تلك الفترة، كان بسبب انحسار مياه الفرات عنها وتحولها إلى الجناح الشرقي، حيث "حلة بني أسد". وهكذا اندثرت مدينة الكوفة، وولدت مدينة إلى الشرق منها هي الحلة، على نحو 50 كيلو متر منها.

في نهاية القرن الثامن عشر، أي بعد ظهور فرات الهندية، انقلبت تلك المعادلة في حوض الفرات الأوسط، بعد أن تحولت فيه المياه من الجناح الشرقي إلى الجناح الغربي، ولقد كان لذلك التحول نتائج غيرت وجه المنطقة.

فعلى الجناح الشرقي للفرات الذي يجري نحو الحلة، انكمشت الأراضي الزراعية وانكمش بسبب ذلك اقتصاد المنطقة بصورة عامة، ومع شِحة المياه زادت معاناة سكان مدينة الحلة، مما اضطر أعداد كبيرة منهم إلى الهجرة إلى أماكن أخرى، ومن المعروف أن العديد من العلماء وطلاب العلوم الدينية، الذين كانوا يواصلون دراساتهم في مدينة الحلة آنذاك، انتقلوا مع عوائلهم إلى مدينة النجف، التي بدأت تنتعش في تلك الفترة، بفضل ظهور فرات الهندية.

لم تقتصر معاناة السكان على مدينة الحلة فحسب بل شملت جميع المناطق الزراعية التي كانت تأخذ مياهها من فرات الحلة، والتي انقطعت عنها المياه، ومن المعروف أن عشائر الخزاعل من "آل حمد" الذين تقع أراضيهم شرق فرات الحلة، . أي ما كان يعرف بـ "صوب" الجزيرة . كانوا من بين أكثر المتأثرين بتلك الظاهرة، إذ بدأت عشائرهم تترك بالتدريج أراضيها التي انحسرت عنها المياه، وتذهب إلى المناطق الزراعية الجديدة التي تأخذ مياهها من فرات الهندية، وقد كان لتلك الهجرات العشائرية الدور الأساسي في تحولات غيرت الخريطة السكانية للمنطقة، بما فيها مدينة الحلة ومدينة النجف.

مع اتساع تلك الهجرات وبمرور الأيام تكونت تحالفات عشائرية جديدة، ومراكز قوى جديدة في المناطق التي تحولت إليها مياه الفرات، وعلى سبيل المثال لا الحصر، فإن ما حدث لقبائل كبشة "جبشة" يلقي الضوء على أبعاد تلك الظاهرة.

يطلق اسم جبشة على مجموعة عشائر متباينة بالنسب، جمعتها الزراعة الحوضية على الجانب الغربي من فرات الديوانية الذي يأخذ مياهه من فرات الحلة، ومنهم بنو خالد وخفاجة وكعب وطفيل وعيّاش وعشائر أخرى، وكانت تلك العشائر تزرع ضمن سلطة الخزاعل، ولكن بعد انقطاع المياه عن مقاطعاتهم

---

(1) أنظر دولة بني أسد ج1ص57 من هذا الكتاب

بعد توسع فرات الهندية، اضطروا إلى تركها متفرقين واتجهوا غرباً نحو مناطق فرات الهندية، فنزلت عشيرة طفيل في أرض قرب الكفل، أما كعب فبعد أن تركت ديارها القديمة ظلت تتنقل من موضع إلى أخر بحثاً عن الأرض المناسبة وأخيراً استقرت تلك العشيرة في "بزايز" نهر الشامية في مقاطعة تسمى "الحمّام"، أما بنو خالد فقد توجهوا نحو فرات الشامية، ولكن حكومة المماليك الكرج، بدلاً من أن تقدم لهم يد المساعدة وهم في تلك المحنة، طاردتهم بعساكرها وشتت شملهم لكونهم من حلفاء الخزاعل، ونزلت عشائر أخرى من جبشة، منها بنو سلامة وبنو عارض وخفاجة وغيرهم على فرعي فرات الشنافية. يقول الساعدي: "... وفي هذا الوقت انضم إلى هذا القسم من جبشة، آل عيّاش وهم من الدهامشة من عنزة، وبانضمام آل عيّاش إلى جبشة صارت المجموعة تعرف باسم "جبشة و عيّاش" بعد ما كانت تعرف باسم "خالد جبشة".(1)

أما في مناطق الفرات الجديد، فقد ظهرت المزارع والبساتين وانتعشت القرى والمدن والمراكز السكانية، وظهرت مراكز سكانية جديدة، منها الهندية (طويريج) وأم البعرور (الشامية) وغيرها، وظهرت معها قوى عشائرية في تلك المناطق الجديدة بعضها احتفظت بأسمائها القديمة والبعض الأخر تشتت وفقدت أسماءها القديمة وتبنت أسماء العشائر التي نزلت في أراضيها.

مدينة الكوفة الحديثة

أما الكوفة فإن التحول فيها كان أكبر وأهم، فكما أسلفنا فإن الكوفة القديمة اندثرت بعد أن تحولت مياه الفرات إلى الشرق أي إلى فرات الحلة، ولم يبقَ منها سوى مسجدها الشهير محاطاً بتلال من الحجارة والركام وأرض جرداء كانت تشكو من العطش. ولكن بعد أن ظهر فرات الهندية، الذي لا يبعد شاطئه عن المسجد سوى بضعة مئات من الأمتار، أشرقت على الكوفة شمس حياة جديدة كانت بدايتها على شاطئ الفرات الجديد، الذي فتح آفاقاً اقتصادية وتجارية ليس للكوفة فحسب بل لعموم المنطقة بما فيها مدينة النجف. فبعد أن تحولت المياه إلى فرات الهندية، الذي أصبح المجرى الرئيسي لنهر الفرات، تحولت إليه السفن التجارية التي كانت تنقل المنتجات الزراعية والبضائع والمسافرين، بين منطقة الفرات الأوسط والبصرة، وبمرور الأيام تحول شاطئ الفرات الذي لا يبعد عن مدينة النجف سوى بضعة كيلومترات، إلى ما يشبه رصيف ميناء تجاري، بدأ يساهم في ازدهار المنطقة بصورة عامة ومدينة النجف بصورة خاصة، ومما زاد في أهمية ذلك، تشييد الجسر العائم الذي وصل الضفتين وفتح طريقٍ للتجارة وللزائرين بين النجف والحلة وبغداد، وفي موقع الجسر قام سوق يؤمه التجار والمزارعون، ونشطت عمليات البيع والشراء وتحميل

---

(1) حمود الساعدي. دراسات عن عشائر العراق الخزاعل،ص21

واستقبال السفن، ويبدو أن تجار النجف كانوا من أكثر المستفيدين من ذلك الازدهار التجاري، مما شجعهم على بناء الأسواق والخانات، لخزن الحبوب والتمور التي كانت تحمل على السفن الذاهبة إلى البصرة، أو المنتجات التي تنقل إلى مدينة النجف، وقد أطلق الناس على تلك المنطقة الناشئة التي استقر فيها التجار والباعة، أسم "الجسر" وباتساع منطقة الجسر، ظهرت معالم مدينة الكوفة الحديثة.

حكومة الكرج على طريق الضعف والانحطاط

النفوذ البريطاني في القرن التاسع عشر

دخل النفوذ البريطاني مرحلة جديدة بالعراق بعد ارتقاء سليمان باشا الكبير إلى منصب الولاية في سنة 1780م، فكما أسلفنا في فصل سابق، كان للدبلوماسية البريطانية اليد الطولى في حصول سليمان باشا على حكومة بغداد، وتعبيراً عن عرفانه بالجميل ورداً للدين، قدم سليمان باشا الكبير خدمات جليلة لبريطانيا، وعمل طيلة سنيّ حكمه، على تعميق وترسيخ نفوذها بالعراق وتوسيعه في جميع الميادين. قال الكاتب البريطاني لونكريك عن جهود سليمان باشا في دعم النفوذ البريطاني:

"…. فقد ظفرت بعطف سليمان باشا نفسه وعرفانه للجميل لأنها ساعدته في الارتقاء لمنصبه، ورد لها الدين بعشرين سنة من العطف الشامل، وباستعمال خدماته لها بصراحة..."[1]

ففي سنة 1782م اشترى سليمان باشا بواسطة شركة الهند الشرقية "طلبية" من السلاح والعتاد، وفي سنتي 1798م و 1799م طلب كميات كبيرة من العتاد العسكري مع مدربين أوربيين من الهند.

في سنة 1783م (بعد سنة من وفاة سليمان باشا الكبير) كانت بغداد قد أصبحت مركزاً دائماً لوكيل محلي لشركة الهند الشرقية، وفي سنة 1798م تم تعيين مقيم بريطاني دائم ببغداد. وفي مطلع القرن التاسع عشر، أعطيت في سنة 1802م للمقيم البريطاني، جميع الصلاحيات القنصلية، ومنذ ذلك الحين أصبحت بغداد أهم مركز للنفوذ البريطاني. استمر ذلك النفوذ في النمو حتى زمن داود باشا الذي اعتمد على بريطانيا في تحديث جيش المماليك الكرج، وتزويده بأحدث الأسلحة والذخائر الحربية.

في تلك الأيام كان مقر المقيم البريطاني محاط بكل مظاهر الأبهة والعظمة، وكان يشغل بناية بجانب الرصافة تطل على نهر دجلة، يرسو أمامها يخت مسلح كان يستخدم لتنقلات ورحلات القنصل البريطاني وللدفاع عن القنصلية من جهة النهر.

المقيم البريطاني جيمس ريج

في عهد سليمان باشا الصغير، تعين في سنة 1808م، كلوديس جيمس ريج (C.J.Rich)، مقيماً بريطانياً ببغداد، ولم يكن قد تجاوز الواحدة والعشرين من العمر. ولكن ذلك الدبلوماسي الشاب تمكن عبر

---

(1) ستيفن هيمسلي لونكريك. أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ص205

ثلاثة عشر عاماً، أن يمنح بريطانيا ودائرة "المقيمية"، المزيد من النفوذ السياسي، والمقام العالي المصحوب بالأبهة الفائقة.

كان جيمس ريج دبلوماسياً استعمارياً من الطراز المتعجرف الذي يؤمن بسلوك سياسة الشدة والتعالي على المسؤولين العثمانيين، وإتباع أساليب الأبهة والعظمة حسب التقاليد الشرقية ليحظى باحترامهم، ولذا حينما حل ببغداد قرر أن يكون شديداً ومتعجرفاً مع حكومة الكرج، وأن تكون له الصدارة في الاحتفالات، وصاحب الأبهة والفخامة في جميع تنقلاته داخل وخارج العاصمة، لأن هذا المقيم البريطاني الشاب، كان مكلفاً من قبل حكومته، بأن يقاوم المشاريع الفرنسية الرامية إلى بسط نفوذ فرنسا بالمنطقة بصورة عامة، وبالعراق بصورة خاصة، ولذا كانت علاقته بالوالي سليمان الصغير سيئة، لأن سليمان الصغير كان يميل للفرنسيين الذين جاء جيمس ريج لاستئصال نفوذهم. ولكن الأوضاع تغيرت حينما تسلّم عبد الله باشا منصب الولاية بعد مقتل سليمان الصغير، لأن عبد الله باشا كان يميل إلى البريطانيين، وبطبيعة الحال ازداد نفوذ جيمس ريج أيام ولاية عبد الله باشا التي استمرت من سنة 1810م حتى سنة 1813م.

في خضم تلك الفترة المتشنجة والمثقلة بالأحداث، نشط المستر ريج ونجح في توسيع شبكة الجاسوسية البريطانية ببغداد، وزاد من تدخله في شؤون البلاد الداخلية مستغلاً الحق الذي كسبه بحكم منصبه، في حماية من يلجأ إلى المقيمية البريطانية مهما كان منصبه، ولأي سبب من الأسباب. فمثلاً منح الحماية إلى سعيد بك بن سليمان الكبير في سنة 1813م، حينما لجأ إلى المقيمية خوفاً من بطش الوالي عبد الله باشا، ولذا نرى أن مكانته تعززت بصورة أكثر بعد تسلم سعيد باشا مقاليد السلطة. ومما عزز مكانته في تلك الأيام، هزيمة نابليون في معركة واترلو الشهيرة، ففي تلك الحقبة رقّي ريج وتم توسيع صلاحياته، إذ أصبح وكيل بريطانيا في جميع الولايات العربية الخاضعة للدولة العثمانية، وبالنسبة للعراق وضعت البصرة تحت إشرافه المباشر.

أصبحت القنصلية البريطانية في أيام جيمس ريج، ملتقى لكبار الموظفين والأعيان والتجار وداراً مفتوحا للضيوف ومجلساً تدور فيه مختلف الأحاديث، وفي كل صباح كان القنصل البريطاني يجلس في ديوانه الفخم على غرار ديوان الوالي ليستمع إلى أحاديث المجتمع وما كان يدور بالبلد، وكان لدى وكيله بالبصرة تعليمات أن يتصرف على ذلك المنوال.

كان من نتائج تعاظم ذلك النفوذ، توسع التجارة البريطانية بين الهند والبصرة بصورة لم يسبق لها مثيل. مع توسع تلك المصالح التجارية في تلك الحقبة التي شاهدت تفاقم أزمات المماليك الكرج وضعف حكمهم، ازدادت أطماع رجال حكومة الهند البريطانية في السيطرة المباشرة على بلاد ما بين النهرين. قال عبد العزيز نوار: " ... فقد دارت في رؤوس ساسة حكومة الهند اتجاهات قوية نحو احتلال جزر معينة من جزر الخليج العربي لتأمين طرق التجارة ... فقد نادى بهذه الخطة أيضاً بعض موظفي حكومة الهند حتى يتمكن الإنكليز من السيطرة على طرق التجارة عبر العراق، ومن جعل التجارة البريطانية في الخليج مرتكزة

على قواعد ثابتة، وكانت هذه هي نفس أفكار ريج، ولا شك أنه كان يشعر تمام الشعور بأهداف الإنكليز بالخليج، بل لاشك أن ريج تباحث مع هود (Heude) في خطة غزو العراق في أسرع وقت وبأقل التكاليف[1]. وقد أشار جون كيلي إلى ما كان يدور في الدوائر الاستعمارية البريطانية بالهند بشأن إقامة قواعد عسكرية بالخليج إذ قال: "في المناقشات التي دارت في بومباي خلال عام 1819م حول مستقبل السياسة البريطانية في الخليج، كان هناك إجماع تام على ضرورة الحصول على قاعدة دائمة في الخليج[2]. ومن الجدير بالملاحظة أن تلك الأفكار الاستعمارية التي تشّبع بها ريج ساهمت في رسم الخطوط العامة للسياسة التي اتبعها في التعامل مع حكام الموصل ومع الإمارات الكردية، ففي تلك الفترة وكما أسلفنا، كانت السياسة البريطانية تعمل على إفساد العلاقات الودية بين فرنسا وحكومة إيران ولتحقيق ذلك الهدف عمل ريج على استرضاء حكومة القاجار وتشجيعها على بسط نفوذها على الإمارات الكردية بهدف أضعاف حكم المماليك الكرج ببغداد.

المستر ريج وداود باشا

بعد تسلّم داود باشا مقاليد الحكم في 26 مارس 1817م، خرج القنصل البريطاني جيمس ريج بموكب بالغ الفخامة لتقديم التهنئة لداود باشا بمناسبة تسلمه منصبه الجديد، وسار الموكب يتقدمه ضاربو الطبول وعازفو المزامير والأبواق وستة من الفرسان بملابسهم المزركشة وفرقة من الحرس الخاص، وكان يرافقه الضابط هود ومساعد ريج الأول وسكرتيره الخاص، وكان جميعهم يمتطون صهوة جياد مطهمة، وفي مؤخرة الموكب عدد من الأتباع، يجري ورائهم جماعة كبيرة من عامة الناس وهم يصفقون، بينما اصطفت جماهير أخرى من السكان على جانبي الطريق يشاهدون روعة ذلك الموكب الفخم.

على هذا النحو الفخم ظهر جيمس ريج، ولكن العهد قد تغير، لأن داود باشا كان يواجه تحديات فرضت عليه أن يكون مختلفاً عن حكام الكرج الذين سبقوه، وكان لديه الكثير من الأسباب التي تجعله يسئ الظنّ بالمقيم البريطاني، فإن علاقات داود باشا مع حكومة القاجار في إيران كانت قد بلغت أشد مراحل التوتر، وكان داود باشا يدرك ميل السياسة البريطانية لكسب صداقة حكومة إيران القاجارية، وأنها مستعدة للتساهل مع حكومة إيران حتى على حساب مصالح حكومة بغداد الكرجية.

---

(1) عبد العزيز سليمان نوار – داود باشا والي بغداد ،ص201

(2) جون ب كيلي – بريطانيا والخليج ترجمة محمد أمين عبد الله، ج1ص277

نشب نزاع شديد بين داود باشا وجيمس ريج بلغ حداً أن المقيم البريطاني أعلن عزمه على مغادرة بغداد، ولكن داود باشا منعه من السفر وحاصر بناية القنصلية ووضع على نهر دجلة في جانب الكرخ بمواجهة القنصلية، مدفعاً جاهزاً لإطلاق النار على القنصلية إذا اقتضت الحاجة. أما القنصل البريطاني ريج، فقد جهز ما كان لديه من حرس وخدم و مجموعة من الضباط البريطانيين الذين كانوا في زيارة إلى بغداد، وضعهم جميعاً مدججين بالسلاح على أهبة الاستعداد لمواجهة عسكر الوالي.

والأهم من ذلك أصدر ريج أمراً إلى نائبه بالبصرة بإيقاف حركة السفن البريطانية الواردة من الهند ومنعها من الدخول إلى ميناء البصرة، كما أمر السفن البريطانية الراسية بالميناء بعدم تفريغ حمولتها أو المغادرة، وبذلك أعلن ما يشبه الحصار التجاري على البصرة. ولكن داود باشا اضطر إلى التراجع وتسوية الخلاف مع المقيم البريطاني

المخططات البريطانية بالعراق

كانت بريطانية تنظر دائماً إلى إيران والدولة العثمانية باعتبارهما منطقتين عازلتين بين الهند التي كانت أغنى وأهم المستعمرات البريطانية، والدول الأوربية الطامعة في ثروات الهند وخاصة فرنسا وروسيا القيصرية. ولذا فإن تلك النظرة كانت الركيزة الأساسية التي بنت بريطانيا سياستها الخارجية مع هاتين الدولتين، وعملت على منع وقوع أي منهما تحت نفوذ الدول الأوربية المنافسة، باعتبار أن ذلك سيعرض خطوط المواصلات بين بريطانيا والهند إلى الخطر.

في أواخر العشرينات من القرن التاسع عشر ومع تطور الملاحة البخارية وجدت السلطات البريطانية أن الظروف تدعوها إلى إقامة طريق مواصلات يربط الهند ببريطانيا، وكان أمام المسؤولين طريقان يمكن دراستهما، الأول طريق بري عبر مصر، والثاني طريق مباشر عبر الخليج والعراق.

في سنة 1829م أرسل حاكم بومباي البريطاني (مالكولم) أثنين من خبراء المسح للتأكد من صلاحية الخليج، وإن أمكن نهر الفرات للملاحة البخارية. في نفس الوقت توجه فريق برئاسة جيمس تايلور، شقيق المقيم البريطاني في بغداد من بومباي لمسح طريق الفرات، ولكن بعد بضعة أشهر لقي أفراد البعثة مصرعهم على يد رجال العشائر النهرية، ولكن تلك الحادثة لم تؤثر في المشروع، حيث أن حكومة لندن بدأت تتفهم وتتجاوب مع توجهات حكومة بومباي البريطانية، وبهذا الصدد يقول كلي:

"في الوقت الذي كانت حكومة بومباي تبذل جهودها للتأكد من القيمة العملية للطريق المباشر، كانت

الحكومة في إنكلترا قد بدأت تعي الأهمية السياسية والاستراتيجية للمشروع ". [1]

الغزو الإيراني ووباء الكوليرا

في صيف سنة 1820م انتشر بالبصرة وباء قاتل لم يألفه سكان العراق من قبل، ولذا ظن البعض منهم أنه الطاعون، غير أن اختلاف أعراضه حيّر أطباء ذلك الزمان الذين لم يعرفوا له دواء. كان ذلك هو داء الكوليرا الذي جاء من الهند عن طريق السفن وانتشر في موانئ الخليج. أخذ داء الكوليرا الخبيث ينتشر من البصرة بسرعة في باقي مدن العراق، ويبدو أن حرارة الجو وتلوث المياه وغياب الخدمات الصحية، ساعدت في سرعة انتشار ذلك الوباء الخبيث، الذي انتشر في مدن الجنوب والوسط ثم وصل بغداد ومنها كركوك والسليمانية.

في تلك الأيام الصعبة احتدمت الصراعات واشتدت النزاعات بين أمراء بابان من جهة وبين عدد منهم وحكومة بغداد، ويبدو أن تلك النزاعات أدت إلى هروب عدد من أمراء بابان والتجائهم إلى الشاهزادة محمد علي ولي العهد وحاكم كرمانشاه، وكان من جملة الأمراء الذين التجئوا إلى كرمانشاه عبد الله باشا بابان فأصدر الشاهزادة أمراً بتعيينه حاكماً على السليمانية بالرغم من أن داود باشا كان قد عين محمود باشا بابان لنفس المنصب. بعد صدور أمر الشاهزادة زحف عبد الله باشا بعدد من رجاله نحو السليمانية للاستيلاء عليها، وقد انضم إليه رئيس عشيرة الجاف. ومما زاد في خطورة الموقف أن الشاهزادة زحف هو الأخر خلف تلك الجماعات الكردية على رأس جيش كبير يضمّ خمسة عشر ألف فارس وخمسة آلاف راجل.

معركة السليمانية

في هذه المرة رأى داود باشا أن ليس بإمكانه الصمود أمام تلك الجيوش الجرارة، وأن لا سبيل له للنجاة إلا بالاستعانة بالسلطان العثماني، وقد استجاب له السلطان بإعلان الحرب على إيران وبعث إلى داود باشا بقوة من "الهايتة" الألبان قوامها خمسة آلاف مقاتل. تحركت قوات داود نحو السليمانية، وعلى مقربة منها دارت معركة بين الطرفين أصيب فيها جيش المماليك الكرج بهزيمة منكرة، ويقال إن تلك الهزيمة كانت مدبرة من قبل الكهية محمد باشا، الذي كان قد اتفق سراً مع الشاهزادة الذي وعده بمنصب ولاية بغداد بعد الاستيلاء عليها.

---

(1) جون ب كيلي – بريطانيا والخليج ترجمة محمد أمين عبد الله، ج1ص452

بعد دحر جيش المماليك الكرج في تلك المعركة انفتح الطريق أمام جيش الشاهزادة وحلفائه من أمراء بابان، فاندفع نحو بغداد بدون مقاومة تذكر حتى وصلت تلك القوات قرية "هبهب" القريبة من بغداد، ووصلت كذلك طلائع قوات أخرى إلى خان بني سعد الذي لا يبعد عن بغداد سوى كيلومترات معدودة.

في بغداد أيقن السكان أن مدينتهم على وشك السقوط أو أنها ستقع تحت وطأة حصار عسير، وأخذ الناس يهربون نحو الحلة و الفلوجة، أما داود باشا فقد جمع ما تبقى لديه من قوات واتخذ موقع الدفاع وكتب إلى حكومة السلطان العثماني أن تمده على جناح السرعة بالجيوش اللازمة للتصدي لجيش الشاهزادة وحلفائه، ولكن لسوء حظ داود باشا، فإن الدولة العثمانية كانت منهمكة في حروب طاحنة مع الجيوش الإيرانية في الجبهة الشمالية إضافة إلى حرب المورة، ولذا لم يكن بإمكانها أن تمد له يد المساعدة بصورة مباشرة، ولذلك اتجهت حكومة السلطان العثماني لطلب العون من والي مصر محمد علي باشا وذلك بإرسال ولده إبراهيم باشا على رأس جيش مصري لمقاتلة الجيش الإيراني، ولكن يبدو أن محمد علي باشا ماطل وامتنع عن تلبية طلب حكومة السلطان لأسباب عديدة، منها أن مسألة العراق لم تكن تهمه، ثم أنه لم يكن يثق بنوايا حكومة السلطان العثماني.

وساطة الشيخ موسى كاشف الغطاء

أغلق داود باشا أبواب سور بغداد وجهز ما تبقى لديه من العسكر بما فيهم الإنكشارية لخوض المعركة الفاصلة، ولكن لحسن حظ داود باشا أن تلك المعركة لم تحدث، لأن القوات الإيرانية التي كانت على وشك حصار بغداد، انتشر بين أفرادها مرض الكوليرا، حتى أن المرض أصاب الشاهزادة نفسه. يبدو أن سؤ أوضاع داود باشا والشاهزادة، فرضت عليهما طلب مساعدة المرجع الديني الشيخ موسى كاشف الغطاء، الذي انتقل من النجف إلى بغداد حيث مكث هناك مدة شهرين بذل أثنائها جهداً كبيرة انتهت بعقد الصلح بين الفريقين المتحاربين.

يبدو أن نجاح المرجع الكبير الشيخ موسى كاشف الغطاء في تلك الوساطة، منحه مركزاً متميزاً تحيطه هالة من الاحترام لم ينلها مرجع ديني من عرب العراق من قبل، ولهذا اشتهر الشيخ موسى كاشف الغطاء بعد تلك الوساطة بلقب "مصلح الدولتين".

إلغاء العسكر الإنكشاري

في سنة 1774م تولى السلطان عبد الحميد الأول عرش آل عثمان بعد أن قضى مدة 44 عاماً محجوزاً في "القفص" في القصر السلطاني، حسب التقاليد التي فرضها الإنكشارية على سلاطين آل عثمان، وبالنظر لإفلاس خزينة الدولة التي استنزفتها الحروب، لم يتمكن السلطان الجديد من توزيع الهبات المعتادة على رجال العسكر الإنكشاري.

بعد فترة قصيرة زحفت الجيوش الروسية واجتازت نهر الطونة في طريقها للاستيلاء على مدينة فارنة "Varna "، وبعد معارك شديدة تمكن جيش القيصر الروسي من إنزال هزيمة منكرة بالجيش العثماني، مما اضطر الصدر الأعظم إلى الدخول في مفاوضات انتهت بتوقيع معاهدة " قينارجة " التي فقدت بموجبها الدولة العثمانية العديد من المناطق التابعة لها في الجانب الأوربي من الإمبراطورية، والتي أضيف إليها بندان سِرِيّان جاء في أحدهما أن تدفع الدولة العثمانية إلى روسيا غرامة حربية تبلغ خمسة عشر ألف كيس من النقود تدفع على ثلاثة أقساط متساوية. (1)

السلطان سليم الثالث

في سنة 1789م وهو عام الثورة الفرنسية، تولى سليم الثالث العرش. في تلك الأيام كانت الإمبراطورية العثمانية تحث الخطى على طريق الضعف والتفكك حيث فقدت بلاد المجر وإقليم ترانسلفانيا وبلاد القرم وأزوف.

بعد تلك الانتكاسات السياسية والعسكرية، تفاقمت مشاكل الدولة الداخلية وانتشرت الفتن وساءت الأوضاع إلى حد أن الإمبراطورية العثمانية بدت وكأنها دخلت مرحلة الانهيار، ففي جزيرة العرب استفحل أمر الحركة الوهابية التي ظهرت بنجد، وفي مصر عظم أمر الوالي الألباني محمد علي باشا إلى حد بات يهدد وجود حكومة السلطان، وفي بلاد الشام تصاعدت ثورة الدروز في جبالهم المنيعة وكذلك الثورات في شمال اليونان وفي مناطق أخرى من الإمبراطورية العثمانية. ولابد أن نتذكر هنا أن أوضاع سكان العراق في تلك الفترة من حكم المماليك الكرج، بلغت أسوأ أزماتها، ففي تلك الأيام تصاعدت اعتداءات الوهابيين على الأراضي والمدن العراقية، والتي بلغت ذروتها حينما اجتاحت جموع الوهابيين مدينة كربلاء المقدسة، وقتلت الرجال والنساء والأطفال، ودمرت المراقد المقدسة ونهبتها، وفي تلك الفترة بدأ فصل جديد من الفتن والمذابح، وعمليات القتل بين الحكام الكرج أنفسهم والتي استمرت لأكثر من عقد من الزمن. ونتيجة لتلك الفوضى والانهيار الإداري، تأزمت أوضاع مناطق الفرات الأوسط الزراعية بسبب انقطاع المياه عن مجرى فرات الحلة وتحولها إلى فرات الهندية.

لمواجهة تلك التحديات الخطيرة ومعالجتها، قرر السلطان الشاب سليم الثالث، إدخال عدد من القوانين الإصلاحية، فقد أمر بإيقاف سوء الاستعمال في أمور الأراضي الإقطاعية وإدخالها بالتدريج ضمن الأملاك الأميرية، أي وضع يد الدولة عليها مرة أخرى، وتقدم بإلغاء نظام "الالتزام" في استحصال

---

(1) محمد فريد بك. تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص342

الضرائب، وإيقاف سوء الاستعمال الجائر الذي كان يصاحب ذلك النظام، وفي الإدارة حدد مدة حكم الولاة بثلاث سنوات، ولكن الإصلاح الخطير الذي باشر السلطان بتنفيذه كان في الحقل العسكري، إذ أمر بتبني الأساليب والنظم الأوربية، حسب ما تسمح به تقاليد الدولة العثمانية.

باشر سليم الثالث مشاريعه الإصلاحية بعد عقد الصلح مع روسيا القيصرية ومع إمبراطورية النمسا، فشرع في تشكيل فرق عسكرية جديدة خارج تشكيلات العسكر الإنكشاري لتدريبها حسب النسق الأوربي الذي كان العامل الرئيسي في تفوق القوى الأوربية عسكرياً على الدولة العثمانية، فتم تشكيل أول فرقة على النسق الأوربي في سنة 1796م وكانت بقيادة ضابط إنكليزي سمي بعد اعتناقه الإسلام " إنكليز مصطفى " وقد بلغ تعداد تلك الفرقة 1600 جندي. ولم يكن خافياً أن القصد من إنشاء تلك الفرقة العسكرية على النمط الأوربي أن تحل محل تشكيلات العسكر الإنكشاري، الذي كان رجاله مصدر الفتن وعنوان التخلف العسكري العثماني، فمن المعروف أن فتن ومشاكل الإنكشارية ازدادت بعد أن توقفت الفتوحات العثمانية وصار الإنكشارية لا يجدون بلاداً يقدرون على فتحها، لينهبوا سكانها ويسلبوا ممتلكاتهم وأراضيهم، ولذا تحولوا إلى أعمال السلب والنهب في عاصمة الدولة اسطنبول، والعواصم الإقليمية الأخرى، تلك الأعمال المشينة التي اقترنت بالتمرد وإراقة الدماء، وعزل الصدور والوزراء والاعتداء على سلاطين آل عثمان، إلى حد الإطاحة بهم وعزلهم في محبس السراي "القفص" أو حتى قتلهم.

في سنة 1805م اقتضت الحاجة الماسة لإرسال المزيد من الرجال إلى الجبهة الروسية، ولذا اضطر السلطان أن يتخذ قراراً جريئاً بإصدار قانون التجنيد الإجباري، على أن يطبق ذلك القانون على الجماعات الشابة المنتظمة في تشكيلات الإنكشارية، ولكن الإنكشارية رفضوا القانون الجديد، وقامت جماعة كبيرة منهم بمهاجمة فرقة عسكرية من التشكيلات الحديثة. في سنة 1807م زحفت جموع المتمردين نحو العاصمة اسطنبول وانضم إليهم هناك عدد من رجال البحرية ونحو ثمانمائة من العسكر الإنكشاري وبعد أن وصلوا إلى الميدان المعروف بميدان الخيل جلب الإنكشارية قدورهم ونصبوها مقلوبة وهي علامة العصيان على السلطان، ثم قرء على المجتمعين أسماء الوزراء ورجال الدولة المؤيدين لمشروع النظام العسكري الجديد، وبعد تلاوة الأسماء توجهت جماعات من الثائرين إلى منازل أولئك الوزراء وقتلوهم، وأتوا برؤوسهم ووضعوها أمام قدور الإنكشارية.

في سنة 1807م عزل الإنكشارية السلطان سليم الثالث وأعادوه إلى محبس السراي "القفص" ونصبوا مكانه السلطان مصطفى الرابع. ولكن الفتن والمنازعات في اسطنبول استمرت بين القوى التي ساهمت في عزل السلطان سليم الثالث، وبلغت الاضطرابات حداً خاف فيه السلطان مصطفى الرابع على حياته، فأمر بعزل المفتي وسرّح عدداً آخر من الجنود الذين ساعدوا المفتي على عزل السلطان سليم الثالث، وفي صبيحة 28 حزيران زحف حاكم روستجق الذي كان من مؤيدي السلطان سليم الثالث وألقى القبض على الصدر الأعظم، وسار نحو السراي السلطاني وطلب إرجاع السلطان سليم الثالث إلى العرش، ويبدو أن

محاصرة السراي بالعساكر أرعب السلطان مصطفى الرابع وأربكه، فأمر بقتل السلطان سليم الثالث، وإلقاء جثته إلى الثائرين، ليدخل اليأس إلى قلوبهم ويكفّوا عن الثورة. ولكن ذلك العمل زاد الثائرين هياجاً، وتعالت أصواتهم بعزل السلطان مصطفى وإعادته إلى محبسه بالقفص، وفعلاً تم عزل السلطان مصطفى الرابع ونصّب الإنكشارية مكانه السلطان محمود الثاني.

السلطان محمود الثاني

كان محمود الثاني الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من الذكور من آل عثمان، وبعد أن تم تنصيبه افتتح أعماله بأن قلّد حاكم روستجق مصطفى البيرقدار منصب الصدارة، ووكل إليه أمر تنظيم الإنكشارية وإجبارهم على العودة إلى إتباع القوانين وسنن السلطان سليمان القانوني، التي أهملها الإنكشارية بمرور الأيام.

بعد فترة قصيرة عاد الإنكشارية إلى التمرد وساروا في سنة 1808م إلى السراي بقصد إعادة السلطان مصطفى إلى العرش، وبعد معارك عنيفة شعر البيرقدار بحراجة موقفه، وخشي من انتصار الإنكشارية على قواته، ولإخماد تلك الفتنة أمر بقتل السلطان المخلوع مصطفى الرابع وإلقاء جثته إلى المتمردين، ولما شاهد الإنكشارية جثة السلطان مصطفى، زادوا هياجاً وأضرموا النار في سراي السلطان لكي يجبروا البيرقدار على الخروج للإمساك به وقتله، ولكن البيرقدار فضّل مواصلة القتال حتى مات حرقاً.

بينما كان القتال مستعراً في اسطنبول، أحضر أمير البحر رامز باشا الذي كان حليفاً للصدر الأعظم، ثلاثة سفن حربية وسلط مدافعها على ثكنات الإنكشارية وأمطرها بوابل كثيف من القنابل، ونزل إلى البر مع فرق من البحارة مع عدد من المدافع وسار بهم لمساعدة البيرقدار، وجاء حليف آخر هو عبد الرحمن باشا مع قوات قوامها ثلاثة آلاف مقاتل ولكنهم وجدوا بعد وصولهم أن البيرقدار قد مات حرقاً، ولكن بالرغم من ذلك واصلوا القتال ضد الإنكشارية وتمكنوا بعد معارك شديدة استمرت طيلة النهار من إنزال الهزيمة بالإنكشارية. في صبيحة اليوم التالي، هاجمت تلك الجيوش التي كانت تصاحبها المدفعية، ثكنات الإنكشارية ودكتها بحمم نيرانها، وحينما وجد الإنكشارية أنهم أشرفوا على الهلاك انتشروا في اسطنبول وأضرموا النار في أحيائها، فاضطر السلطان للإذعان لطلبات الإنكشارية حتى يمكنه إنقاذ المدينة من الدمار الشامل.

بعد تلك الجريمة المروعة بحق العاصمة اسطنبول وشعبها، والتي بينت أن الإنكشارية لا يترددون في تخريب وتدمير كل شيء حتى عاصمة البلاد، وأنهم يصرون على أن يبقوا أمراء حتى على الخرائب. أمام تلك الحقيقة المروعة، كان على السلطان المصلح محمود الثاني أن ينتظر، حتى تتهيأ الظروف الملائمة لتحقيق ذلك الهدف الخطير. وفي هذه المرة طال انتظاره مدة سبعة عشر عاماً أخرى.

في سنة 1826م جمع السلطان كبار رجال الدولة بما فيهم أمراء الإنكشارية، في بيت المفتي،

فخطب فيهم الصدر الأعظم مستعرضاً ما حل بالعسكر الإنكشاري من انحطاط وفقدان النظام والإصرار على رفض تبني النظم العسكرية الحديثة، ولذلك لم يعد بإمكانه الوقوف بوجه الجيوش الأوربية الحديثة، ثم نهض كاتب سر الصدر الأعظم (مكتوبجي) وتلا على الحضور مشروعاً بستة وأربعين بنداً لإصلاح العسكر الإنكشاري.

ولكن ما أن بدأت عمليات التدريب على الأسلحة الحديثة، حتى ظهرت روح التمرد والرفض في صفوف الإنكشارية، فقد رفضوا الانصياع لأوامر وتعليمات مدربيهم من العسكريين الأوربيين، وفي 24 حزيران من سنة 1826م اعتدى بعض الإنكشارية على العسكريين الأوربيين الذين كانوا يدربونهم، فأصدر السلطان محمود أمراً يقضي بمعاقبة المعتدين بالموت.

تجمع رجال الإنكشارية مساء ذلك اليوم فيما يسمى بميدان الخيل، وتبعهم بعض الرعاع الذين جاؤوا طمعاً في السلب والنهب، وأعلنوا التمرد على السلطان، ولكن السلطان جابههم برد عسكري قوي وعنيف، فقد جمع فرق المدفعية وحمل البيرق النبوي وزحف بقواته ومدافعه إلى ميدان الخيل، وبعد أن اتخذت كتائب المدفعية التي كانت بقيادة ضابط أسمه إبراهيم، ويلقب بـ"قرة جهنم" أي جهنم السوداء، مواقعها حول ذلك الميدان وخاصة المواقع المرتفعة التي تشرف عليه، وحينما تحرك الإنكشارية للهجوم على مواقع المدفعية، رد عليهم رجال "قرة جهنم" بنيران كثيفة أنزلت بهم خسائر فادحة بالأرواح مما اضطرهم للانسحاب إلى ثكناتهم ولكن القصف المدفعي لاحقهم بنيرانه، يقول الوردي:

"... وأخذ يصب قنابله على ثكناتهم فهدمها وأشعل النار فيها. خرج منهم بعض الشجعان وبأيديهم السيوف غير أنهم قُتِلوا قبل أن يفلحوا بالهرب، وحاول قليل منهم طلب الرحمة دون جدوى. وفي النهاية لم يسلم من الإنكشارية أحد. فكانت مذبحة منظمة دبرت بإتقان." (1)

ويكمل صاحب تاريخ الدولة العلية الرواية فيقول:

"... وفي اليوم التالي صدر فرمان سلطاني بإبطال فئتهم كلية، وملابسها واصطلاحاتها واسمها، من جميع الممالك المحروسة، ونودي بذلك في الشوارع وصدرت الأوامر إلى جميع الولايات بالتفتيش على كل من بقيَ منهم وإعدامه أو نفيه إلى أطراف البلاد حتى لا تبقى منهم باقية ... " (2)

---

(1) علي الوردي. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ،ص264

(2) محمد فريد بك. تاريخ الدولة العلية العثمانية ص 431

إلغاء الطريقة البكتاشية

بعد أن قضى السلطان محمود على العسكر الإنكشاري، قرر اجتثاث الطريقة الصوفية التي أسسها الشيخ بكتاش ولي، الذي يعده الإنكشارية الأب الروحي لجيشهم الذي أسسه السلطان أورخان، وعليه أوعز السلطان محمود إلى رجال الدين ومشايخ الطرق الصوفية الأخرى، لإصدار الفتاوى اللازمة، يقول الوردي:

"... فاجتمع رجال الدين مع مشايخ الطرق الصوفية الأخرى . بإيعاز من السلطان . وأفتوا بأن التعاليم البكتاشية مخالفة للشريعة الإسلامية ..." (1)

بعد أن حصل السلطان على الغطاء الشرعي أمر بهدم التكايا البكتاشية في اسطنبول ومصادرة الكتب الموجودة فيها، وأمر بتحويل أملاك الطريقة البكتاشية إلى الطريقة النقشبندية. وفي أثناء ذلك بدأت عمليات قتل مشايخ الطرق البكتاشية أو إبعادهم إلى أماكن نائية، وأخذت الأقاويل تنتشر حول زندقة معتنقي الطريقة الصوفية البكتاشية واستهانة مشايخها بالقرآن الكريم، وفي خضم تلك الأحداث ساد جو من الإرهاب، استغله البعض في ترويج الوشايات للتخلص من خصومهم.

داود والعسكر الإنكشاري بالعراق

في مستهل القرن الثامن عشر، تلقى إنكشارية بغداد ضربة قاصمة على يد الوالي حسن باشا، الذي أسس جيش المماليك الكرج، لتحجيم دور الإنكشارية العسكري والسياسي، وتحويلهم إلى قوة ثانوية تابعة لسلطته الجديدة ببغداد، وبسبب انقطاع الموارد وتدهور أوضاع حكومات اسطنبول، أتجه الإنكشارية مرغمين، إلى قبول استلام الأرزاق من خزينة الوالي المحلية، وهذا أدى بالنتيجة إلى تحولهم إلى قوة محلية تابعة لديوان الوالي. أشار لونكريك إلى تلك الحقيقة التاريخية فقال:

"... وقد تبدلت نوعية الإنكشارية في العراق كثيراً خلال القرن الماضي، فقد كان ضباطهم الذين يردون من اسطنبول يقلون شيئاً فشيئاً حتى انقطعوا تماماً. فتوقف ورود قوائم المجندين من الخارج، وعوّض النقص الحاصل من ذلك بالتجنيد محلياً ... ومنذ ذلك الحين فصاعداً لم يكن الإنكشاريون إلا جنوداً يجندون محلياً، وتدفع لهم أرزاقهم من الخزينة المحلية.

---

(1) علي الوردي . لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ص 264

كيف تلقى داود أمر السلطان

وصل أمر السلطان محمود الثاني بإلغاء فئة الإنكشارية إلى بغداد في أواخر صيف ذلك العام، ويبدو أن ما حدث في اسطنبول كان مفاجأة غير سارة لداود باشا الذي كان يرى العواقب الخطيرة لذلك الحدث الكبير، ولذا فضل أن يخفي ذلك الخبر ريثما يتدبر الأمر ويجد لنفسه مخرجاً يجنبه المجابهة العسكرية مع عساكر الإنكشارية في تلك الأيام العصبية.

بعد التدبير والاستعداد، جمع داود باشا في يوم معين كتائب الإنكشارية في ساحة السراي فكان تعدادهم ثمانية عشر سرية، وكان داود باشا قد استعد لكل الطوارئ وأعد عساكر المماليك الكرج بكامل أسلحتهم ومدافعهم، وبعد أن حضر الجميع، أمر داود بقراءة الفرمان السلطاني الذي نزل على رؤوس الإنكشارية كالصاعقة، فأخذتهم الدهشة وساد بينهم الوجوم. في تلك اللحظات الرهيبة، تكلم داود والدموع تنهمر من عينيه، وأخذ يخاطب الإنكشارية بلهجة مؤثرة وكأنه يقوم بدور مسرحي، وطلب منهم أن يطيعوا أمر السلطان وينضموا إلى التشكيلات العسكرية الجديدة، يقول الوردي:

"... ولم يكد الإنكشاريون يسمعون ذلك منه حتى نزعوا من على رؤوسهم "القلبق" دليلاً على الطاعة وأخذوا يتهافتون على تسجيل أسمائهم في النظام الجديد..." [1]

هناك حقيقة سبق أن نوهنا بها وهي أن عرب العراق كانوا بعيدين عن تلك التحولات، لأنهم كانوا مستبعدين عن السلطة بصورة عامة، وعن القوات المسلحة بصورة خاصة، ولذا فإن الإشارة إلى ذوبان الإنكشارية أو اندماجهم بالسكان المحلين، سواءُ في بغداد أو الموصل أو في أي مركز أخر بالعراق، فإنما يشير إلى اندماجهم ضمن المجتمع العثماني وفي الغالب مع عناصر شبه نظامية كانت تخدم السلطات المحلية.

إلغاء الطريقة البكتاشية بالعراق

كان للبكتاشية في العراق عدد من التكايا، في بغداد وكركوك وكربلاء والنجف، ويبدو أن حكومة داود باشا اكتفت بإخلاء تلك التكايا وطرد الددوات (المشايخ) منها دون التعرض لها، وكان للبكتاشية تكية في محلة الجعيفر في جانب الكرخ من بغداد، أمر داود باشا بإخلائها وكلف السيد طه الحديثي بإدارتها ثم عزله بعد أيام بعد أن أشيع أنه منهم.

---

(1) علي الوردي . لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ص 265

ومن الجدير بالملاحظة أن كان للبكتاشية تكية في كربلاء ملاصقة لصحن الأمام الحسين، كانت بيد عائلة من السادة الأشراف هم "آل الدده"، لازال لهم وجود في كربلاء، وكان للبكتاشية تكية كبيرة بالنجف الأشرف يقع بناؤها الرئيسي في الجهة الغربية من الصحن الشريف، أي جانب محلة العمارة، وله باب يمكن الدخول منه إلى الصحن الشريف مباشرة، ويقال إن البناء كان خزانة للكتب مرتبطة بالمرقد الشريف استولى عليه البكتاشية وحولوه إلى تكية لهم، ويبدو أن البكتاشية أضافوا إلى التكية من جهة الغرب دار ضيافة واسعة تحوي على العديد من الغرف وفيها بئر ماء، ويرتبط بدار الضيافة إسطبل يسع لعدد كبير من الخيول، وكانت كل تلك الوسائل مهيأة لاستقبال البكتاشية القادمون من داخل العراق أو من بلاد الأناضول، ومن المعروف أن الدراويش البكتاشية كانوا يردون إلى النجف، من بلاد الأناضول وأقاليم الترك النائية، ويباتون في الدار يمارسون طقوسهم بالتكية، وكان بإمكانهم الدخول إلى الصحن الشريف من بابهم الخاصة حتى بعد إغلاق أبواب الصحن الرئيسية، ولكن كل هذا انتهى بعد طرد البكتاشية من تكاياهم، وبذلك انقطع سيل الزوار البكتاشية إلى النجف، ولكن التكية الفارغة وملحقاتها بقيت سالمة حتى النصف الثاني من القرن العشرين، ثم تعرضت بعد ذلك إلى الهدم، كما كان الحال مع العديد من البيوت والمدارس والجوامع والمواقع التراثية، التي تزخر بها مدينة النجف القديمة والتي أزيلت بطريقة عشوائية وغير حضارية.

القضاء على حكم المماليك الكرج

بعد وفاة أحمد باشا، حاولت حكومة السلطان العثماني استغلال الفراغ السياسي الحاصل، وسعت لاستعادة سلطتها التي غابت عن بغداد منذ بداية القرن التاسع عشر، وقد تركزت الجهود على منع زعيم المماليك الكرج سليمان أبو ليلة تسلم مقاليد السلطة ببغداد، ولكن محاولاتها باءت بالفشل وتمكن أبو ليلة بعد سلسلة من المؤامرات والفتن وبذل الأموال في بغداد واسطنبول، من تسلم منصب الولاية في سنة 1749م، ولكن محاولات حكومة السلطان للإطاحة بحكم المماليك الكرج لم تتوقف، وظلت تتكرر مع تعاقب الأزمات التي واجهها ذلك النظام.

في عهد السلطان محمود الثاني تجددت فكرة القضاء على حكم المماليك الكرج ببغداد، خاصةً بعد أن وضحت نيات داود باشا في إلحاق ولاية الموصل بإدارته وبسط حكم المماليك الكرج على كل العراق، ومما زاد في مخاوف حكومة السلطان محمود، مباشرة داود باشا في تكوين قوات نظامية جديدة وفق الأساليب الأوربية الحديثة، وهذا كان يعني بالنسبة لحكومة السلطان ظهور قوى عسكرية محلية سيكون بإمكانها تفكيك الإمبراطورية العثمانية الغارقة في مشاكلها وبالتالي القضاء عليها.

كان السلطان محمود يعد محاولات حكام الولايات أمثال داود باشا وغيره، في تحديث جيوشهم المحلية بمثابة تهديد مباشر لمشاريعه الإصلاحية ولسلامة ووحدة الإمبراطورية، ولابد أن سياسة التعاون التي سلكها داود باشا مع السلطات البريطانية، والعلاقات الوثيقة التي كانت تتطور بين المماليك الكرج والسلطات البريطانية بالخليج، كانت تعزز مخاوف السلطان محمود الثاني الذي كان يعمل على إضعاف الحكومات المحلية وبناء دولة مركزية قوية بإمكانها مواجهة التحديات الخارجية والداخلية. بعد نجاح السلطان محمود في القضاء على الإنكشارية كقوة عسكرية، وإبطال الطريقة الصوفية البكتاشية، أصبح بإمكانه التحرك للقضاء على المماليك الكرج بالعراق.

في تلك الأيام أعلنت روسيا القيصرية الحرب على الدولة العثمانية ونودي بالنفير العام في جميع الولايات العثمانية وطلب من كل والي أن يقدم للدولة بالإضافة إلى الرجال معونة مالية تتناسب مع قدرته، ويبدو أن حكومة السلطان نظرت فيما يمكن أن تقدمه حكومة داود باشا، ورأت أن داود باشا لن يرسل جيوشه خارج البلاد، ولذا قررت أن تقتصر مساهمته على المعونة المالية، وحددت المبلغ الواجب دفعه بستة آلاف كيس من النقود باعتبار أن فائض خزينة داود باشا بلغ حسب المعلومات المتوفرة حوالي 42 ألف كيس بعد المصروفات. ولكن داود باشا أمتنع عن إرسال الأموال المطلوبة، وهذا الموقف فسره رجال الحكم في اسطنبول باعتبار أنه عصيان من قبل داود باشا يستحق عليه العقاب.

مبعوث السلطان صادق الدفتري

في تلك الفترة المشحونة بالأزمات الخارجية والداخلية، دأب داود باشا على سلوك سياسة كانت توحي بتوجهه نحو الاستقلال بالعراق في وقت كان السلطان محمود يعمل على دعم الحكم المركزي، ولابد أن ذلك التقاطع في السياسات اقنع السلطان محمود بأن الوقت قد آن للقضاء على داود باشا، وعلى حكم المماليك الكرج ببغداد. ولكن يبدو أن ما كانت تعانيه حكومة السلطان من مشاكل اضطرها أن تبتعد عن الإجراءات العسكرية وتجرب سلوك طريق أسلم للتخلص من داود باشا، وعليه أرسل السلطان محمود في صيف سنة 1830م إلى بغداد رجلاً يثق فيه هو الدفتردار صادق بك وخوله مسؤولية التخلص من داود باشا بأي وسيلة تتاح له.

داود باشا يقتل مبعوث السلطان

يبدو أن داود باشا كان يظن بأن المشكلة يمكن تلافيها و"تميّعها" بإغداق الأموال والهدايا على مبعوث السلطان كما كانت العادة في تلك الأيام، ولكن حينما التقى مبعوث داود محمد المصرف بصادق أفندي عامله الأخير بجفاء واستهانة، ومع ذلك فإن داود باشا أعد مراسم استقبال فخمة تليق بمبعوث السلطان، ولكن صادق أفندي عاد وتعمد إهانة داود مرة أخرى بأن تركه منتظراً قدومه ولم يذهب له، وكأنه أراد أن يعلن للناس وخاصةً الجماعات المعادية للمماليك أن أيام داود باشا أصبحت معدودة.

أحس داود باشا بخطورة الأمر، وشعر أن صادق أفندي لن يتردد في قتله إذا عصى أمر السلطان القاضي بعزله، وبعد التفكير ومراجعة الأمور قرر داود باشا أن يقتل صادق أفندي قبل فوات الأوان، ولرسم خطة التنفيذ جمع داود باشا مستشاريه: وهم محمد أفندي المصرف، وسليمان آغا الميراخور، والصراف باشي إسحاق اليهودي. وبعد المداولة قرر المجتمعون القضاء على مبعوث السلطان، خاصة وأن إسحاق اليودي أخبر داود باشا، بأن والده الصراف في اسطنبول أكد له أن صادق أفندي يحمل تخويلاً من السلطان بقتل داود إذا اقتضى الأمر.

في 20 تشرين الأول (أكتوبر) ليلاً أحاطت كتيبة من عسكر الكرج بدار الضيافة التي حل بها مبعوث السلطان، ثم اقتحمها محمد المصرف وسليمان أغا الميراخور ورمضان أغا حاجب داود باشا ومعه عريف ضخم الجثة اسمه خالد أغا، قام بخنق مبعوث السلطان. بعد القضاء على صادق أفندي جاء داود باشا بنفسه ليتفحص الجثة، قال سليمان فائق: "... وكان الباشا ينتظر عاقبة أمرهم، فلما جاءه البشير قام بنفسه إلى بيت الضيافة فلم يلبث حين رأى صادق أفندي قتيلاً أن وضع يده على فمه ليطمئن قلبه

بانقضاء أجله وخمود آخر أنفاسه ..." [1]

صدى مقتل مبعوث السلطان

في الصباح التالي جلس داود باشا في ديوانه وأعلن أن مبعوث السلطان مريض وأنه أصيب بمرض "الهواء الأصفر"، وللإيغال بالكذب لإخفاء الجريمة، تظاهر داود باهتمامه بصحة مبعوث السلطان، فكان يرسل كل يوم طبيباً يتظاهر بأنه ذاهب لمداواة مبعوث السلطان، وكان يرسل كذلك مبعوثين من قبله للاستفسار عن صحة المريض، ولكن جميع تلك الحركات التمثيلية لم تنفع ولم يتمكن داود من إخفاء جريمته التي انتشرت الإشاعات حولها بين سكان بغداد، وأخذت الأحاديث والتكهنات تدور حول ما سيحدث من حروب ومذابح، وما سيحل بهم من مصائب جراء ذلك، إذ تنبأ الكثيرون منهم بأن السلطان سيرسل جيوشه الجرارة إلى بغداد للانتقام من داود باشا وخشي البعض أن يستعين داود باشا بحكومة إيران القاجارية، وأخذوا يتحدثون عن خيانة بكر صوباشي التي أدت إلى استيلاء جيوش الشاه عباس الصفوي على بغداد في سنة 1623م.

ومهما كان الحال فقد انتشر الخوف والذعر في بغداد، ونزحت جماعات كبيرة من الناس وخاصة من الأقليات، حيث توجهوا نحو مناطق أخرى لتتفادى الحرب، وتهافت من بقيَ من الناس على شراء المواد الغذائية مما أدى إلى ارتفاع أسعارها.

إجراءات السلطان العسكرية

كان لمصرع مبعوث السلطان صدى عظيم في اسطنبول، لما حمله من إهانة وتحد لمقام السلطان وللدولة، وكان قرار السلطان حاسماً في تجريد حملة عسكرية للقضاء على حكومة الكرج.

عرض السلطان بالبداية مهمة قيادة الحملة العسكرية على يوسف باشا والي حلب السابق المعروف بقدراته القيادية وجرأته، ولكن يبدو أن يوسف باشا طالب بأموال كثيرة وإمدادات عسكرية كبيرة، مما حدا بالسلطان أن يتحول إلى عرض آخر تقدم به والي حلب وهو علي رضا باشا اللاز.

كانت حلب نقطة استراتيجيه هامة لشن هجوم على العراق، ثم أن علي رضا كان يحظى بدعم البريطانيين، ويتعاون معهم على تنفيذ مشروعهم الرامي جعل طريق الفرات كطريق دولي بين الهند وأوروبا. ويبدو أن هذه العلاقة ساعدته في إنجاز مهمته ضد داود باشا.

---

(1) سليمان فائق بك – تاريخ المماليك "الكولمند" ببغداد، ص58

طلب علي رضا أن توجه إليه ولاية بغداد وتوابعها مضمومة إلى حلب، وأن يدفع له السلطان ستة آلاف كيس من النقود، على أن تعاد تلك الأموال لحكومة السلطان من واردات العراق. وافق السلطان على تلك الطلبات، ورفع علي رضا إلى أعلى رتبة عسكرية أي "سر عسكر" ثم أضيفت إليه كذلك ديار بكر لتقوية نفوذه.

الحملة العسكرية وتفشي الطاعون

حشد علي رضا باشا جيشاً كبيراً وسار في أوائل شباط من سنة 1831م من حلب نحو بغداد، وتشاء الأقدار أن ينتشر ببغداد، بعد فترة وجيزة من تحركه الطاعون، الذي يقال أنه كان من أشد موجات ذلك المرض الفتاك الذي اجتاح بغداد، ويبدو أن ذلك المرض الفتاك الذي اجتاح بغداد قلب جميع الخطط التي وضعها داود باشا لمواجهة جيوش السلطان. حينما ظهر الوباء بالعاصمة أخذ الموت ينتشر خاصة في أحياء الفقراء، ويقال إن سبعة آلاف إنسان ماتوا خلال خمسة عشر يوماً، واستمر الموت يحصد من الناس يومياً، بين ألف وخمسمائة وثلاثة آلاف نسمة، حتى خلت العديد من المحلات من الأحياء، وتكدست الجثث في كل مكان.

علي رضا يعسكر بالموصل

كان علي رضا باشا قد وصل الموصل على رأس جيش السلطان وبعد أن استقر فيها أرسل طلائع من جيشه بقيادة قاسم باشا العمري ومعه صفوق شيخ شمر الجربة وسليمان الغنام من شيوخ عقيل.

جيش السلطان يزحف نحو بغداد

في بداية شهر تموز 1831م وصل علي رضا إلى ضواحي بغداد وعسكر في بساتين الصليخ، وبدأ فوراً بإجراءات الحصار على المدينة التي أغلقت مداخلها، فبدأت المناوشات بين عساكر علي رضا والمدافعين عن بغداد، وبقصد الإرهاب وإيقاف الحركة داخل بغداد، كان جيش علي رضا يطلق عدداً من القنابل، فترد عليه مدافع المدينة، وهكذا استمر الحال.

في بداية شهر تموز 1831م وصل علي رضا إلى ضواحي بغداد وعسكر في بساتين الصليخ، وبدأ فوراً بإجراءات الحصار على المدينة التي أغلقت مداخلها، فبدأت المناوشات بين عساكر علي رضا والمدافعين عن بغداد، وبقصد الإرهاب وإيقاف الحركة داخل بغداد، كان جيش علي رضا يطلق عدداً من القنابل، فترد عليه مدافع المدينة، وهكذا استمر الحال.

كان تعداد جيش داود النظامي لا يتجاوز خمسمائة جندي وضابط من الكرج، وهم كل ما تبقى لدى داود بعد كارثة الطاعون التي اكتسحت أعداداً كبيرة من جنوده، وقد تولى صالح بك قيادة تلك القوة، كذلك

كان لديه نحو 600 إلى 700 من الخيالة يضاف إليهم نحو 500 من عقيل وهم من المشاة، وكان على داود باشا أن ينسّق الدفاع عن بغداد أو بالأحرى عن حكومة المماليك الكرج، بهذا العدد الصغير من الرجال.

أبقى داود العساكر الموظفة في القلعة بيد ملا حسين الحشامات، وفي الروابي الإستراتيجية وضع خيرة عساكر الكرج لحراستها، أما في الجانب الغربي من بغداد (الكرخ) فالسور كان قد تهدم بسبب فيضان دجلة، ولمحافظة باب الكاظمية وظف داود باشا عسكر عقيل مع سليمان آغا الخازن، وأوكل لحراسة باب الكريمات مجموعة من عسكر الكرج.

أما قائد جيش السلطان علي رضا باشا فكانت لديه كتيبتان من التيمار الخيالة، وفوجان من المشاة، ونحو اثني عشر ألف من قوات غير نظامية من الخيالة والمشاة، ولكن لم يكن معه ما يكفي من مدافع وعتاد وذخيرة، ولذا لم يكن من المؤمل الاستيلاء على بغداد عنوة، ولابد أن ذلك الواقع فرض على علي رضا باشا أن يتبنى أساليب أخرى لتحقيق هدفه، ومنها إحكام الحصار على بغداد لتجويع وأنهاك المقاومين، وذلك لتسهيل استسلام المدينة بالأساليب السياسية.

في البداية لم يكن الحصار محكماً فكانت الأرزاق تأتي إلى بغداد من الباب الشرقي وفي جانب الكرخ من باب الحلة، ولإيقاف وصول الأرزاق ضرب سليمان الغنام خيامه أمام باب الحلة، وبذلك انقطعت الأرزاق القادمة من تلك الجهة، ونزل عساكر اللاوند تجاه الباب الشرقي وبذلك قطعوا دخول الأرزاق من تلك الباب، وهكذا تم إحكام الحصار على بغداد.

أما من الجانب الآخر فإن علي رضا بذل جهوداً كبيرة لعزل حكومة داود باشا سياسياً، وقد تمكن من استمالة عدد كبير من رجال الحكومة حتى من رجال الكرج الذين هربوا من بغداد أيام الطاعون ولم يعودوا لها، وفي أثناء ذلك تمكن أنصاره من بسط سيطرتهم على البصرة وبذلك تمكن من عزل حكومة داود عسكرياً وسياسياً وحصرها داخل أسوار بغداد.

بمرور الأيام تأزم الوضع داخل بغداد بسبب طول الحصار وشدته، وأخذ عساكر الكرج يستولون على الحنطة وباقي الحبوب التي اختزنها سكان بغداد لاستهلاكهم المنزلي.

محنة المماليك الكرج

أخذ أثر المجاعة يزداد يوماً بعد يوم وبدا الوضع يتطور في صالح علي رضا اللاز، ويبدو أن الضابط الفرنسي الذي كان يدرب قوات داود باشا "دفو" (Devaux) شعر بخطورة الموقف فعرض على صالح بك خطة للقيام بهجوم ليلي مفاجئ وقال له: أن لديه من القوات ما يكفي لإلقاء جيش علي رضا في دجلة والقضاء عليه، ولكن صالح بك لم يشأ أن يتخذ مثل هذا القرار الخطير لوحده، ودعا كبار قادة الكرج

وعرض الأمر عليهم، فاختلفت آراؤهم خوفاً من التبعات السياسية، فقد أثار درويش أغا وهو من كبار قادة الكرج عدة اعتراضات سياسية على جانب من الخطورة، فقد ذكرهم درويش بالالتماسات التي تم إرسالها باسم سكان بغداد إلى السلطان، يسألونه فيها إسناد الباشوية لداود أو لصالح بك، وأنهم بانتظار قرار السلطان الذي قد يكون بصالح الكرج، فهل يجوز لهم أثناء ذلك شن هجوم مباغت للقضاء على جيش السلطان وكيف سيبررون ذلك، ثم ذكرهم بالأخطار التي سيواجهونها بعد تلك المغامرة، التي ستمنح إيران فرصة ثمينة لمهاجمتهم من الشرق، وهم بعدائهم للسلطان سيصبحون وحدهم في الميدان، وربما ستكون تلك نهاية حكم الكرج ببغداد.

يبدو أن رأي درويش لاقى قبولاً لدى صالح بك الذي كان في قرارة نفسه يفضل الانتظار، ويأمل أن يحصل على منصب الولاية دون داود باشا. هكذا وقف المؤتمرون أمام خطة "دفو" واعتراضات درويش الموقف الحائر العاجز وانتهى الاجتماع دون التوصل إلى قرار حاسم.

في تلك الأثناء ظهرت علامات القحط، وتفاقمت أزمة الغلاء وازدادت مخاوف الناس حتى المجموعات العسكرية منهم، فجاءوا مع أعيان المدينة إلى صالح بك وعرضوا عليه أوضاعهم وتباحثوا معه في أيجاد حل ينقذ الجميع. بعد مباحثات مطولة استقر الرأي على شن هجوم محدود، ليس ضد قوات علي رضا الرئيسية، بل مهاجمة سلمان الغنام وجيشه من عساكر عقيل الذين يحاصرون باب الحلة في جانب الكرخ، وقد عهدت قيادة ذلك الهجوم إلى الضابط الفرنسي دفو، وبعد حشد القوات النظامية وقوات الحيطة (هايته) والمشاة من أهل الكرخ، وما تبقى من عساكر عقيل، شن الضابط دفو هجوماً صاعقاً على رجال سليمان الغنام، وفي فترة وجيزة تم القضاء على تلك القوة والاستيلاء على خيامهم وأرزاقهم، وبذلك أخذت الأرزاق تدخل بغداد من جانب الكرخ.

يبدو أن ذلك الانتصار المحلي في جانب الكرخ، حمّس البغداديين وحفّزهم للهجوم على قوات علي رضا الرئيسية، ولذا تجمّع العديد من الناس عند السور في باب المعظم، وكانت أصوات المدافع تهز المنطقة، والرصاص يلعلع في الجو، فتحمست جماعة من المقاتلين المحليين وفتحوا باب السور، ثم اندفعوا خارجين للقتال، يقول علي الوردي:

"... والظاهر أنهم نجحوا في بداية الأمر حيث استولوا على طابية على ساحل النهر وغنموا سلاحها ومدفعين كانا فيها، فأغراهم ذلك إذ تحولوا نحو طابية أخرى تقع على طريق الأعظمية، وهناك فاجأهم أحد عشر فارساً من "الهايته" فهزموهم هزيمة شنعاء، وصار "الهايته" يطاردونهم حتى أوصلوهم إلى باب المعظم. ولما شاهد الجمهور الذي كان محتشداً هناك هزيمتهم، انثالوا هم من جانبهم يفرون إلى الداخل

نحو جهة المقاهي، وصار يدهس بعضهم بعضاً، وقد سقط منهم من جراء ذلك قتلى وجرحى كثيرون." [1]

الانهيار واستسلام داود باشا

اشتد الحصار على الناس وشح الطعام حتى أصبحت الحالة لا تطاق داخل بغداد، وكانت معاناة السكان عظيمة، وسادت الفوضى وغاب القانون حتى صارت المنهوبات تعرض للبيع علناً دون خوف، وتصاعدت روح العداء والغضب الشعبي ضد الحكام الكرج. في هذا الجو المتوتر بذل المماليك الكرج وعلى رأسهم صالح بك جهوداً كبيرة لإخفاء أمر تلك المفاوضات ونتائجها، ولكن سرعان ما انتشرت تلك الأخبار وأصبحت على كل لسان، واهتز مجتمع بغداد من إصرار السلطان على فتح بغداد. في تلك الأثناء انهارت الروح المعنوية للمماليك الكرج وحلفائهم.

انتهز دعاة علي رضا باشا المنتشرين في بغداد ذلك الوضع المنهار، وأخذوا يحرضون السكان على الإذعان لأوامر السلطان، ولتفكيك الترابط بين البقية الباقية من المماليك الكرج وحلفائهم نشط على رضا باشا في الاتصال بكبار رجال البلد من الكرج وغيرهم، وأكثر من وعوده في توزيع المناصب العالية عليهم بعد دخوله بغداد.

يبدوا أن جهود علي رضا أثمرت، حيث أخذت جماعات كبيرة داخل بغداد وخاصة في محلة باب الشيخ ذات الكثافة السنية من السكان تتحرك ضد حكومة الكرج، وتظهر ولائها للفاتح القادم باسم السلطان.

في ليلة 14 أيلول من سنة 1831م تقدمت جماعة كبيرة من الناس وسيطرت عل الباب الشرقي القريب من محلة باب الشيخ، وسمحت لقوة من عساكر السلطان من الخيالة (التيمار) دخول بغداد، وقد استولت تلك القوات على طوابي المدينة فيما عدا طوابي باب المعظم التي قاومت حتى صباح اليوم التالي.

في اليوم التالي حاول داود باشا الاعتصام بالقلعة ولكن مستشاريه أكدوا له أن الأمر قد انتهى، فنزل في بيت أحد أتباعه بجوار القلعة ينتظر ما يأتي به القدر، وبعد ساعة جاء عدد من ضباط علي رضا وقادوه إلى خارج المدينة، وحينئذ عم الفرح ببغداد وفتحت الدكاكين أبوابها وهبطت الأسعار، وبدأت الحياة تعود إلى طبيعتها.

وضع علي باشا خطة متقنة للقضاء على حكم المماليك الكرج ببغداد، وفي البداية اتخذ أسلوب المصالحة والتوفيق مع الجميع، ولذا حينما اقترب داود باشا من خيمته نهض علي رضا وتقدم لاستقباله وعانقه وأخذه إلى خيمته، وتبسط معه في السؤال عن صحته وحاله كأي ضيف عزيز، وقدم له القهوة في

---

(1) علي الوردي . لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ص 208

الفنجان الذي شرب منه، ويبدو أن داود باشا أندهش من ذلك اللقاء الودي الغير متوقع، فهدأ روعه وسكنت نفسه المضطربة، وتشجع للسؤال عن أفراد عائلته، وخاصة ولده الصغير حسن، وهو أخر من بقى من أولاده ولم يكن قد بلغ الخامسة من العمر، فأمر علي رضا بأن يؤتى به في الحال، فأتوا به إلى خيمة الوزير وهكذا التقى داود باشا بولده الصغير في موقف عاطفي مؤثر.

النهاية الدامية

بعد تسفير داود باشا دخل علي رضا باشا بغداد بموكب فخم، وبالنظر لاحتراق السراي نزل في محل آخر اتخذه داراً للحكومة، وفي اليوم الثالث دعا علي رضا المماليك إلى حفل بحجة قراءة الفرمان بوزارته، وفرمانات التولية للمناصب الجديدة، وكان طبيعياً حضور المماليك الكرج، بعد أن عفا عنهم علي رضا، لسماع تلك الفرامين. في تلك الأثناء ملأ علي رضا القصر بعدد كبير من جنود مختارين، وبعد أن تناول المدعوون القهوة، دخل علي رضا باشا إلى الحرم بحجة الوضوء، وما هي إلا لحظات حتى هجم جنود علي رضا على المماليك الكرج وذبحوهم حسب خطة مرسومة. الغريب في الأمر أنهم ذبحوا حتى رجال المماليك الكرج الذين انحازوا إلى جانب علي رضا وساعدوه أثناء حصار بغداد.

بعد تلك المذبحة صدر الأمر بملاحقة المماليك الذين لم يحضروا الحفل، وكان منهم صالح بك بن سليمان باشا الكبير، إذ هجم عليه الجنود بينما كان راكباً حصانه وانهالوا عليه طعنا، فخر على الأرض صريعاًً، حينئذ تقدموا منه وحزوا رأسه وتركوا جثته ملقاة في الزقاق، واستمر عساكر علي رضا باشا يطاردون الهاربين من المماليك الكرج، وتمكنوا من القبض على عدد منهم قتل علي رضا جماعة منهم، وأرسل نحو اثني عشر منهم إلى اسطنبول. بعد أن هدأت الأوضاع، عفا علي رضا عن الهاربين من الكرج فعادوا إلى بغداد وأعلنوا الطاعة للحكم الجديد، ومن المعروف أن علي رضا خصص لهم رواتب مناسبة، واستفاد من خبرة بعضهم في الوظائف الإدارية، وهكذا عاد في عهد السلطان محمود الثاني الحكم العثماني المباشر إلى العراق.

حكام عسكر المماليك الكرج

1749م – 1831م

	الاسم	استلام الحكم	النهاية
1	**سليمان باشا أبو ليلة**	**تشرين أول 1749م**	**توفي في أب 1761م**
2	**علي باشا**	**23 تموز 1762م**	**قتل سنة 1763م**
3	**عمر باشا**	**1763م**	**قتل سنة 1776م**
4	**عبد الله الكهية**	**1776م**	**توفي سنة 1778م**
5	**حسن باشا (غير كرجي)**	**1778م**	**هرب من بغداد**
6	**سليمان باشا الكبير**	**أكتوبر 1779م**	**توفي في آب 1802م**
7	**علي باشا**	**آب 1802م**	**قتل في آب 1807م**
8	**سليمان باشا الصغير**	**1807م**	**قتل في تشرين أول 1810م**
9	**عبد الله باشا**	**1810م**	**قتل سنة 1813م**
10	**سعيد باشا**	**1813م**	**قتل سنة 1817م**
11	**داود باشا**	**1817م**	**عزله السلطان في1831م**